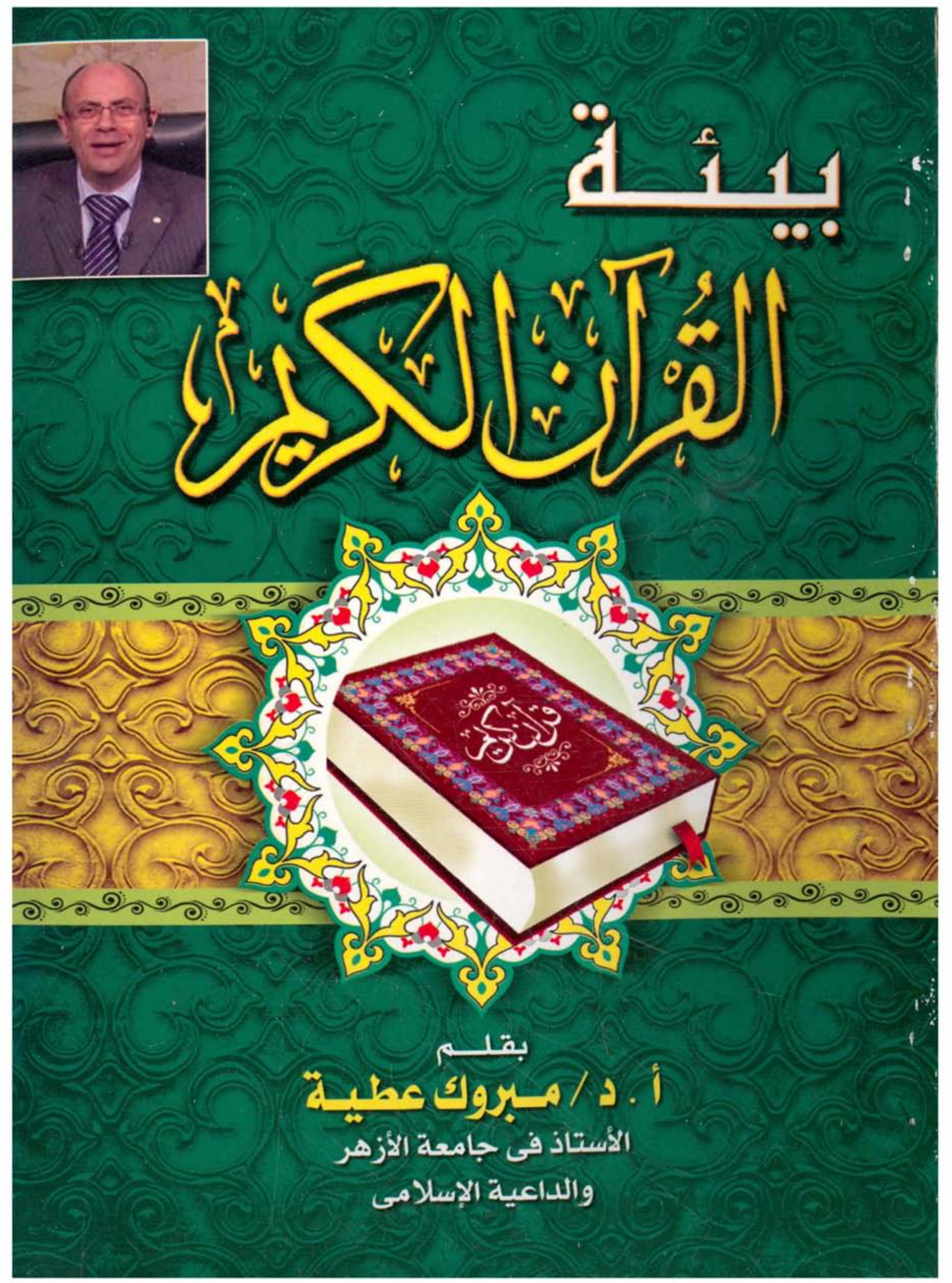
kitabweb-2013.forumaroc.net



بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله الذى أراد لأمة محمد – صلى الله عليه وسلم- أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، والصلاة والسلام على سيد الناس سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم يجمع الله فيه الناس ..

وبعد

فأول ما أبدأ به قول الله تعالى : "وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس" ؛ لأن بيئة القرآن هى بيئة الناس وأصل كلمة الناس من الأنس ، والأنس عكس التوحش يقال هذا إنسى ، وهذا وحشي ، فإذا رأيت إنسانية فى أمة من الأمم فاعلم أنها إما أن تكون بيئة قرآن ، أو أن تكون بيئة مهيئة لكى تكون بيئة قرآن ، وإن كان شوقى أمير الشعراء قد قال :

أنتم الناس أيها الشعراء

فإنى أقول : أنتم الناس أيها المسلمون

وقد تتبعت جميع الآيات الواردة فى سياق الحج فوجدتها جميعا جاءت بلفظ الناس ، قال تعالى : "**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**" ، **وقال سبحانه** : "وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من

كل فج عميق" ، وقال سبحانه :"ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس" ، وقال تبارك اسمه :"فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"

ورأيت أن ذلك سببه أن الحاج أحوج ما يكون إلى معنى الإنسانية فى التعامل ، وهو غريب مجاهد بنفسه وماله فى سبيل رضوان الله ، وقد سئل ابن عباس – رضى الله عنهما- عن أفضل عمل يقوم به الحاج مع أداء شعائره فقال : الإنفاق على الإخوان وخدمتهم .

وقد جعلت فصلا كاملا فى كتاب (الوسطية فى الدين والإبداع) عنوانه : الأدب الإنساني أدب إسلامى ، بدليل ما رواه المحدثون الثقات ومنهم البخارى من قول النبي – صلى الله عليه وسلم – كاد شعر أمية أن يسلم ؛ فحكم صلى الله عليه وسلم على شعر أمية بن أبى الصلت بالإسلام ، وإن كفر قلبه .

وكم من الأشعار ، والكلمات والسلوكيات ،و الأعمال يمكن الحكم عليها بأنها إسلامية ؛لأنها إنسانية وإن لم يكن أصحابها مسلمين ، ويناسب ذلك قول من قال من محمد عبده أو رفاعة الطهطاوى : "وجدت هنالك إسلاما بلا مسلمين ، ووجدت هنا مسلمين بلا إسلام"

والفكرة التى يتناولها هذا الكتاب تدور حول بيئة القرآن الكريم ملامحها ومعالمها، هل نحن فعلا بيئة القرآن الكريم المؤصلة لنشر تعاليمه ، والتى يبدو عليها أثره فيها وقد تناولته من خلال أربعة فصول :

الأول : فى تهيئته الناس كى يكونوا بيئة القرآن

والثانى : محمد رسول الله والذين معه

والثالث : فى قيمة المآل وغياب العلم

والرابع : فيما أحدثه المغرضون من إتلاف بيئة القرآن

والله أسأل أن ينفع به الأمة ، وأن يكشف به الغمة ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

أ.د

مبروك عطية

الفصل الأول

تهيئة الناس ليكونوا بيئة القرآن

لكى يكون الناس بيئة صالحة للقرآن الكريم نجد تهيئة فى كتاب ربنا هؤلاء الناس ، لا شك أنهم متى التزموا بها كانوا ، وإن لم يلتزموا بها حدثت المفارقة بينهم وبين هذا القرآن الكريم ، ومن ذلك هذه الآيات من سورة الإسراء (٢٣ – ٣٩) حيث يقول الله – تعالى -: " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾"

وقد بدأت الآيات الكريمة بالتوحيد واختتمت بالتوحيد كذلك ، قال الله تعالى فى صدرها : "" وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ " ، وقال عز وجل فى ختامها : " وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ" ، فالتوحيد سياج لكل تعاليم الإسلام ، وهو الحصن الحصين لبينة القرآن الكريم ،

إى أن كل التعاليم العالية ، والمبادئ السامية فى حضن التوحيد ، وحصنه الحصين ، فلا عمل يقبل إلا إذا كان مبنيا على عقيدة صحيحة ، وهى التوحيد ، وقد بدأت هذه الآيات البينات ببر الوالدين ، فالبينة القرآنية بينة بر ، والبر : اسم جامع لكل خير ، وقد قال الله تعالى : " لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ " ، وقال سبحانه : "لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟

وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾"

والأقربون أولى بالمعروف ، والوالدان أقرب الأقربين ، فهما أولى بالبر ، فبيئة القرآن الكريم ليست بيئة عقوق ،،

وثنى الله تعالى بعد بر الوالدين بذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، وقد سمى ربنا تعالى فترة العجز عن العطاء انتظار رحمة الله تعالى المرجوة ، أى القريبة المحققة ، لا فترة اليأس والعجز ، كما يدعى من بينه وبين القرآن مبعدة ، فليس من بيئة القرآن من يقول لذوى القربى وغيرهم إذا لم يجد ما يعطيهم : من أين ؟ وكيف ؟ والعبد وسيده ، وكان زمان ، وقد يقول لهم : أنتم السبب فى فقرى وحاجتى ..... إنها أعينكم المدورة ، وأنفسكم المريضة ، وأنفاسكم غير الطيبة ، وحسدكم ، وسواد قلوبكم ، وغير ذلك من وابل الكلمات السيئة ، التى لا صلة لها بالكتاب العزيز ، وآدابه العظيمة ، وخلقه الذى هو خلق القرآن الكريم ، وقد ثبت أن خلق نبينا – صلى الله عليه وسلم – القرآن ، وهذا خلق القرآن الكريم فى هذه المسألة ،،

وبيئة القرآن الكريم بيئة اعتدال لا تعرف التبذير ، وهو وضع الشىء فى غير موضعه ، ولا تعرف البخل ، فاى داء أدوى من البخل ، ولا تعرف الإسراف ، وهو مُجاوزة الحد

وقد كان من عادة بعض الجاهليين أن يقتلوا أولادهم خشية الإنفاق ، فالله - تعالى- يرزق الولد والوالد ، وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى الذنب أعظم عند الله ؟ فقال : أن تشرك بالله وهو خلقك ، فقال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك

وقد أشرق الإسلام بنوره ، ودعوته إلى إحياء الناس ، فلا قتل إلا على سبيل الخطأ "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ " ، وقد نهى ربنا تعالى الناس المؤهلين للارتقاء إلى أن يكونوا من بيئة القرآن الكريم ألا يقتلوا أولادهم ، وألا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق (القصاص) ، كما نهى عن الثأر ، والانتقام باليد ، " فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾" ، وبيئة القرآن لا تعرف الزنا ، الذى كان شائعا فى الجاهلية ، وإنما تعرف الزواج الذى هو شرع الله عز وجل ، وهو العلاقة الوحيدة بين رجل وامرأة أجنبيين ليكون كل منهما أقرب الناس إلى صاحبه ، وقد يسر أمره ، ورغب فيه ، وعالج الأسرة علاجا محكما لكى يستمر الدفء ، والمودة ، والرحمة بين الزوجين ، ورعاية الولد ، وشرع الطلاق غذا استحالت الحياة بين الزوجين

ونهى ربنا عز وجل تلك البيئة المهينة لتكون بيئة القرآن الكريم عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، ويبين فى سورة النساء حكم الغنى والفقير الوصيين ، قال تعالى :"وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ" ، كما بين حكم من يأكل أموال اليتامى ظلما ، قال تعالى :

"إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾" ، وأمر ربنا تعالى بالوفاء بالكيل والميزان ، "ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾" ،

ونهى ربنا سبحانه وتعالى عن تقفى ما ليس لنا به علم ، ويشمل ذلك التجسس والتخمين ومعرفة أخبار الناس لا لكى نعطف على المحتاج منهم والمحروم ، ونزور مريضهم ، وإنما لذات ذلك ، والتشفى والشماتة ، وأن بينة القرآن الكريم بينة محافظة على السمع والبصر والفؤاد الذى ينبغى أن يكون مشغولا بطاعة الله ، فهلا كان السمع فيما يفيد ، وكان البصر فيما ينفع ، وكان الفؤاد معلقا بما يفيد المرء فى دنياه ودينه وآخرته !

ونهى ربنا – جل وعلا – عن المشي فى الأرض مرحا وبطرا وكبرا ، وقال :" إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾" ،أى مهما تبختر المرء فى مشيته ، فضرب الأرض فلن يخرقها ، ومهما تطاول بعنقه كبرا على الناس فلن يبلغ الجبال طولا ، فعلام هذا المرح ؟

وقد سبق أن ذكرت فى عباد الرحمن قول الله عز وجل : "وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾" ،

وقال الله تعالى : "كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾" أى أن الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وحرمان ذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ومخاطبتهم بالسوء ، والبخل والغسراف والتبذير وقتل النفس ولدا أو

غير ولد ، وقرب الزنا الذى يؤدى إلى الوقوع فيه ، والإسراف فى القتل بأخذ الثأر ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وتقفى ما ليس لنا به علم ، والتكبر ، كل ذلك سيئ العاقبة ، والمآل ، والتفكر فى المآل من سمات البيئة القرآنية ، لأن عدم التفكر فيه يجعل الإنسان كالحيوان كما قال الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/١٥١) .

وبيئة القرآن الكريم بيئة راقية ، ولن نصل إلى هذا الرقى إلا باتباع ما أمر ربنا تعالى واجتناب ما نهى عنه .

ثم قال ربنا عز وجل : "ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ" ، فبيئة القرآن الكريم بيئة الحكمة ، والحكمة معناها أن تضع الشيء موضعه ، وليس منها أن تشرك بالله عز وجل ، والشرك ظلم عظيم ، لأنك تعدل بالله – عز وجل – غيره ، والله تعالى لم يكن له كفوا أحد ، قال سبحانه : " ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾" .ومن الحكمة أن تكون بارا بوالديك وبذوى قرابتك ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وأن تقول لهم قولا ميسورا إذا لم تجد ما تعطيهم ، فأنت فى حال الضيق فى انتظار رحمة الله عز وجل ، وهى قريبة من المحسنين ، قال الله عز وجل : " إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾" ، وليس من الإحسان أن تسيء إلى أصحاب الحقوق عليك وقت العسر ؛ فهو وقت رجاء فى رحمة الله – عز وجل- ووعد الله حق ، ومن أصدق من الله حديثا ، ومن أصدق من الله قيلا؟ ، وقد قال وقوله الحق : "وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلاً مَّيۡسُورًا ﴿٢٨﴾"

بيئة الاعتبــــــار

أن تعتبر بما تراه ، فيكون لك عبرة دليل على أنك من بيئة القرآن الكريم ، قال تعالى بعد ذكر قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون ، الذى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فى سورة النازعات : "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾" ،،

والله تعالى يقول فى خاتمة سورة يوسف : "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾" ،

وجميع ما ذكره ربنا – عز وجل – من القصص القرآنى الواسع ، من أجل هذا الاعتبار ، فبيئة القرآن الكريم بيئة اعتبار ، وثمرة الاعتبار فى مخالفة الذين فسقوا ، ومسهم العذاب ، وموافقة الذين فازوا برحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة

فمن الأول على سبيل المثال قصة قارون ، ذلك الذى آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، وحين نصح بأن يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة غير ناس حظه من الدنيا وأن يحسن كما أحسن الله إليه ، قال إنما أوتيته على علم عندى ، ونظر إليه الذين يريدون الحياة الدنيا ، وتمنوا أن يكون لهم ما كان له ، وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، فلما خسف الله به وبداره الأرض أقروا بأن الله قد من عليهم إذ لم يخسف بهم كما خسف بقارون ،

والعبرة قد تمثلت فى قول الله تعالى فى خاتمة قصته من سورة القصص : " تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾" ،

ويعتبر المهيء لكى يكون من بيئة القرآن الكريم من هذه القصة ، فيحسن ، ويبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، إن كان ذا مال أنفق منه فى سبيل الله ، وإن كان ذا علم نشره وعلم الناس ، وإن كان ذا جاه أو سلطان آوى الضعيف وأخذ الحق من القوى ،

قال الله عز وجل فى آيات سورة القصص (٧٦ – ٨٣) : "إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾"

ومن أمثلة ذلك قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب ، وحفهما بنخل ، وجعل بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجر الله تعالى خلالهما نهرا ، لكن صاحب الجنتين دخل جنته وهو ظالم لنفسه ، فقال : ما أظن أن تبيد هذه ابدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ومن قبل ذلك قال لصاحبه : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، وما قال له صاحبه : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لأنه قال له ذلك ، وإنما قالها له حين قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ،،

وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يغضب لنفسه قط ، ولم ينتقم لنفسه مرة ، وإنما كان يغضب صلى الله عليه وسلم ، إذا انتهكت حرمة الله عز وجل .

وأحيد بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ، ولكن بعد فوات الأوان ، وكما قال الله فى قارون : "ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا"

والعبرة فى هذه القصة ألا يصاب المنعم عليه بغرور فيظن أن النعمة باقية ، وأن الساعة لن تقوم وأنه كما قال العاص بن وائل السهمى : "لاوتين مالا وولدا" أى فى الآخرة ،

يقول الله تعالى فى آيات سورة الكهف (٣٢ - ٤٤):" وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾" .

ومن الجانب الآخر ، جانب التأسي بالصالحين الذين فارزوا برضوان الله عز وجل ورحمته ، على سبيل المثال قصة إبراهيم عليه السلام كما جاء فى سورة مريم ، حين كان مثالا فى مخاطبة أبيه الكافر ، فلما استحال الوصال بينهما ، وأصر الرجل على كفره ، واعتزله خليل الله إبراهيم – عليه السلام - ، وهب الله له إسحاق ويعقوب وكلا جعل نبيا ، ووهبهم الله من رحمته فرزقهم طيبات الحياة الدنيا ، وجعل لهم لسان صدق عليا ، قال تعالى فى آيات سورة مريم (٤١ –٥٠) : "وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾"

وبالإضافة إلى الاعتبار بهذا الأدب الجم نجد عبرة عظيمة فى قول الله تعالى : "فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾"
حيث إن كثيرا من الناس يظن أنه لو اعتزل ما حرم الله من ربا وغش وتدليس

وتطفيف فى الكيل والميزان فسوف يموت جوعا ، ولو تفكر فى هاتين الاينين الكريمتين لعلم أن الذى يعتزل الباطل معرض لرحمة الله ورزقه الواسع ، وليس كما يزعم ؛ فتلك من وساوس الشيطان وحديث النفس الأمارة بالسوء ، لكن الحق الذى هو قرآن ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول إن من يعتزل الحرام يأتيه الرزق الواسع من الحلال ، الا ترى إلى هاتين الأيتين ، وإلى قوله تعالى : "وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾".

عزم الأمور

وقد هيأ الله تعالى بينة القرآن على عزم الأمور ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : "إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾" ، وقوله عز من قائل : "لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾" ، وقوله تبارك اسمه : "يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾"

وبناء البينة على عزم الأمور لا يعنى أنها تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض ، وإنما يعنى أن التزامها بعزم الأمور سوف يجعلها مهيئة لاستقبال كل فضيلة لأنها بعزم الأمور تحصنت ، وازدادت قوة ومناعة ، فعزم الأمور بمثابة المناعة القوية التى تصد كل رذيلة ، وتقيم كل فضيلة .

فأنت تستطيع أن تحكم على امرئ ملتزم بعزم الأمور بأنه هيهات أن يصر على الصغائر ؛ لأنه مجتنب الكبائر ، ومن اجتنب الكبائر أبى أن يسلك فى طريق الصغائر ، لأنه سوف ينتهى إلى تلك الكبيرة التى هو محال أن يفعلها ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : "وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ " ، نهانا عن قربه ، فما بالنا بالنهى عنه ، وقد قال العلماء أن قوله سبحانه : "وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ" أبلغ من قوله لو قال : ولا تزنوا ، لأن النهى عن قرب الشىء أبلغ وأوكد فى النهى عنه ؛ فالذى لا يقربه حتما لن يفعله ، بخلاف الذى يقربه بكثرة التردد على أجنبية ، والاختلاف إليها ، والاختلاء بها ، وغير ذلك ،،

وتهيئة الناس لكى يكونوا من بيئة القرآن الكريم على عزم الأمور فيه ما فيه من درس الخطاب الدينى وهو مفقود فى زماننا الذى صار الخطاب المنسوب إلى الدين فيه (رطرطة) فارغة ، وأصر الهواة القائمون به على أن يغرقوا الناس فى النوافل ، ويصوروا للناس أنها هى الدين ، فالدين عند هؤلاء قيام الليل ، وصيام الاثنين والخميس ، ناهيك بالشكل ، والحث عليه ، واعتبار من تحلى به أخا دون سواه ، مع أن الله عز وجل يقول : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : "المسلم أخو المسلم " ، والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، ولا صلة لجميع ذلك بشعر لحية ولا تقصير ثوب ،فإن الله عز وجل لا ينظر إلى صور الناس ، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، وليس معنى ذلك ازدراء من يفعل هذا ، معاذ الله ، بل إننى نشرت فى جريدة الأهرام المصرية أنها سنة شكلية طيبة إذا

كانت عنوانا على مسلم لا يخون ، وكذلك فى قصر الثوب ، توعد النبى صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلاء بأنه لن يدخل الجنة ، وذلك مقيد بـ "خيلاء" ، أى من جره تكبرا على الناس ، أما من جره عادة مثل أبى بكر الصديق وغيره فلا خطر عليهم والأعمال بالنيات ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لست منهم"

وقال عليه الصلاة والسلام : "كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة" . أى كل ما شئت دون إسراف والبس ما شئت دون مخيلة وتكبر .ومن تهيئة الناس لكى يكونوا صالحين ، أى يكونوا من بينة القرآن الكريم ما جاء فى سورة لقمان ، وهو من دروس التربية بمكان ، وكعادة النظم الجليل يبدأ بالتوحيد ، عصمة الأمر ومنطلق الخيرات ، قال تعالى : " **وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾** " .

وكما رأينا فى آيات سورة الإسراء يثنى ربنا تعالى إثر التوحيد ببر الوالدين : " **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾** "

وورد فيها مراقبة الله عز وجل لأنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء : "**يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾**"

ويأتى الحث على الصلاة ، وروحها الذى تجسد هنا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على **المصائب** : "يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾" .

ويأتى التنبيه إلى شرف التواضع : "وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾" ،

وكذا الاعتدال فى المشي ، والغض من الصوت الذى بات فى هذه الأيام مهجورا فى الخطاب المنسوب إلى الدين ، والذى شاع فيه الحديث عن غض البصر ، وكأنه لا غض فى الإسلام إلا غض البصر ، وغض البصر واجب وكذلك غض الصوت ، وقد صارت الأصوات عالية بلا داع ، وهذا من الفاحشة ، كما قال العلماء : " وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾"

وبيئة القرآن الكريم بيئة بشر كرمهم الله عز وجل وليست بيئة حمير ، ومعنى ذلك أن بيئة القرآن الكريم :

١- بيئة موحدين بالله عز وجل

٢- وبيئة بر بالوالدين

٣- وبيئة صحبة طيبة :" وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ".

٤- وبيئة مراقبة الله عز وجل

٥- وبيئة صلاة تبث روحها فى سلوك المصلين ؛ فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

٦- وبيئة حسن معاشرة وتواضع

٧- وبيئة اعتدال فى المشى

٨- وبيئة غض صوت وهدوء نبر .

تهيئة الولاية

وأهم تهيئة فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، تهيئة الولاية ، ومعناها تهيئة الناس على أن وليهم الله عز وجل ، ومن كان الله وليه فلا خوف عليه فى الدنيا والآخرة ، ولتقرأ هذه الآيات من سورة الشعراء (٧٨ – ٨٩) : "ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأَخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾" ، وقد سئل الإمام مالك رحمه الله ، بأى أسماء الله احسنى ندعو ؟ ، فقال : أرى أن يدعى بدعاء الأنبياء (ربى ... ربى ... ربى) ،،

وقد قال الله تعالى : "وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأَخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾" .

فالرب من التربية والرعاية والعطاء ، وقد رأينا فى آيات سورة الشعراء معطيات الولاية على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام ؛ فالله وليه خلقه ، وهداه ، وأطعمه ، وسقاه ، وإذا مرض شفاه .

واقرأ هذه الآيات من سورة الأعراف (١٩٦ ـ ٢٠٥) :"إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾"

وأود أن أتوقف عند قول الله سبحانه : "إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾" ، فصريح الآية أن الله عز وجل يتولى الصالحين ، والصالحون عند كثير من الناس هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ويذكرون الله تعالى على المعنى الشائع باللسان ،،

وفى الكتاب الذى نزل الله عز وجل معنى آخر لا يتوقف عنده هؤلاء ، وهو الرفق ، قال عز وجل فى آية القصص : "قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾" ،، فالرفق من صفات الصالحين ، فإن وجدت من يؤدى الشعائر وهو قاس القلب فاعلم أن بينه وبين الصلاح بونا شاسعا ، وما أكثر القساة من بين المؤدين للشعائر ، وقد حكى لنا أحد شيوخنا بالأزهر الشريف أيام الطلب نكتة تدل على المفارقة بين العبادة والسلوك فقال : مر رجل برجل يضرب ولده بعنف ؛ فقال له : يا هذا لا تقس على صغيرك ، فظل يضربه ،

فقال : يا أخى أرجوك لا تقس على صغيرك ! فظل يضربه ،

فقال : يا أستاذ أرجوك لا تقس على صغيرك ، فظل يضربه ،

فقال : يا بك أرجوك لا تقس على صغيرك ، فظل يضربه ،

فقال : يا باشا أرجوك لا تقس على صغيرك ، فظل يضربه ،

فقال : يا حاج أرجوك لا تقس على صغيرك ، فتوقف ورجع وقال له : وما الذى أدراك أننى حاج ، قال :لأن قلبك قاس .

وما ينبغى للحاج أن يكون قاسي القلب ، ولا لغيره من الذين يقيمون شعائر الله – عز وجل - ؛ لأن العبادات ما شرعت فى هذا الدين إلا من أجل تزكية النفوس .

وقد ثبت فى السيرة النبوية العطرة أن الكفار يوم أحد حين انتقلت إليهم الريح ، أرادوا أن يشمتوا فى المسلمين ، فهتفوا قائلين : لنا العزى ولا عزى لكم ، فبلغ

ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : هلا رددتم عليهم ؟ ، فقالوا : مدذا نقول يا رسول الله ؟ ، فقال عليه الصلاة والسلام : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

وقد قال ربنا تعالى فى آية التحريم : "إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ "

وقد ذكرت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها : ألا تخافين أن تغضبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيغضب الله لغضبه ؛ فتهلكى ويهلك أبوك .

وما ذلك إلا من فقه عمر رضى الله عنه لمعنى الولاية ، وقد قال الله تعالى فى سورة يونس : " أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ " ، وأولياء الله الصالحون لا عدد لهم ، بدليل قول الله تعالى : "ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾" ، فكل مؤمن تقى هو من أولياء الله الصالحين وهذا هو الضابط ، ضابط من يتولاهم الله عز وجل ، وليسوا فقط سكان الأضرحة المعدودين .

والله تعالى يدافع عن أوليائه ، وينصرهم ، " إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ " .

والله تعالى ولى من يتولى غيره من إخوانه ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة التوبة : "وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾"

تأمل قوله تعالى : "وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ" ، ومقتضى هذه الولاية بين المؤمنين كما جاء فى الآية الكريمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : "وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾"

وهم يطيعون الله ورسوله ، قال تعالى : " أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ " ، والله يرحم أولياءه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : "أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة " وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ، فمن كفل يتيما وتعهده بالرعاية كان الله عز وجل وليه .

وقضية الولاية من القضايا المهمة التى يجب أن تأخذ مكانتها فى الخطاب الدينى المستنير ، لأنها قد غابت ، حتى صار الولد لا يشعر بوليه (أبيه وأمه) وكذلك البنت التى ربما لم تسمع بكلمة ولى فضلا عن معناها إلا عند زواجها ، حين يقال : لا زواج إلا بولى ، تقول أين كان ذلك الولى منذ نعومة أظفارى ، وأنا أحبو ، وأنا أتنقل بين مراحل التعليم المختلفة ،أحتاج إلى نفقات كثيرة ، وإلى عطف ورعاية ودفء وحنان ، إنى لم أجد منه إلا تسلطا بقسوة ، وجبروتا ،وعنفا وحب رئاسة ، والآن يعترض على من يتقدم لخطبتى وهو كفء ، ويريد أن يزوجنى من غيره لأنه ابن أخيه أو ابن رئيسه أو رفيقه على المقهى ، أو غير ذلك .

"لا زواج إلا بولى" هذا صحيح ؛ وهو قول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولدينا فى الفقه الإسلامى باب يسمى " عضل الولى "أى ظلم الولى ، وظلم

الولى يتمثل فى أن يريد تزويج فتاته أو المرأة التى هو وليها من غير كفء ، وعندئذ ترفع المرأة أمرها للقاضى لكى ينصفها من ظلم وليها .

مقتضيات الولاية

وتأمل قول الله عز وجل من سورة المائدة : "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾" ،أى وهو يطيعون الله ورسوله ، هذا معنى وهم راكعون .

والنبى صلى الله عليه وسلم قال : من مات وله مال فلورثته ، ومن مات وعليه دين فأنا وليه وعلى سداده " ، وقد قال تعالى : "وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ" ، وهذا من مقتضيات الولاية ، أن تسد دين المدينين ، وأن تعطف على المسكين وأن تحسن إلى الناس أجمعين ، وأن تكون أمينا لمن ائتمنك ، وألا تخون من خانك ، وأن ترعى إخوانك ، ورفاقك ، وأن تتواصوا جميعا بالحق والصبر والرحمة ، قال تعالى : " وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ " ، وقال عز وجل : "ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾" .

الفصل الثاني

محمد رسول الله والذين معه

النبى صلى الله عليه وسلم بيئة القرآن الأولى

١- على قلبه صلى الله عليه وسلم نزل الذكر الحكيم ، قال تعالى : "نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾" ؛ فهو ذو قلب فى بيئة قل فيها من هو ذو قلب ، قال تعالى فى الكافرين : "لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا" ، وإذا كان القلب إذا ذكر ذكرت معه المشاعر فإن ذكر الفقه مع القلوب فى النظم الجليل يدل على أنه العقل ، وليس ذلك القلب الوارد فى شعر الشعراء الذى يهيم فى حب ليلى وعزة ورشا ونرمين ، وليس ذلك القلب الذى يشار إليه بمناسبة وغير مناسبة فى مواطن العواطف ، مسرات ومضرات

ويبدو لى – والله أعلم – أن إيثار التعبير بالقلب فى هذه الآية وفى غيرها يدل على أن العقل لا يخلو من مشاعر ، فهو ليس جامدا جمودا محضا كما يتصور كثير من الناس الذين يضعونه فى مقابلة القلب ، فيقولون : فلان يختار بعقله ، وفلان آخر يختار بقلبه ، وتقول الشاكية : اخترته بقلبى ، فأفسد على حياتى وظلمنى

وكما تقول الصبية المراهقة لزميلاتها فى المرحلة الثانوية : هل تختارين شريك حياتك بعقلك أم بقلبك ، فترد واحدة : بعقلى ، وترد أخرى : بقلبى ، وترد ثالثة : بهما معا ، مع اتحاد الجميع فى المغالطة ، وعدم التفريق الصحيح بين العقل والقلب .

وحديث القرآن الكريم عن القلوب حديث طويل ، منه هذه الآية الكريمة التى تدل على أن القلب معناه العقل الذى لا يخلو من عاطفة ووجدان ، ،

والنبى صلى الله عليه وسلم كغيره من إخوانه الأنبياء نحن نؤمن بأن له ولهم أربع صفات على التفصيل :

١ـ الصدق

٢ـ الأمانة

٣ـ التبليغ

٤ـ الفطانة .

وهذه مكونات أساسية لبيئة القرآن الكريم ، وقد عرفه الناس قبل البعثة الشريفة بالصادق الوعد الأمين ، قال أبوجهل ليلة مصرعه ببدر للأخنس بن شريق وقد سأله : هل تظن أن محمدا كذاب ، قال : كيف ؟ وما جربنا عليه كذبا قط ، إنه محمد بن عبد الله الذى ما كذب مرة واحدة !

والله عز وجل يقول : "**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾**" ، **بل إنه تعالى قال : "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾" ، وقال عز من قائل : "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾"، ويقول سبحانه : "قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ"** ، والذين قالوا فيه ، وفى إخوانه النبيين كذاب هم كاذبون ؛ لأنه ليس كذابا ، ولم يقولوها إلا ليقنعوا أنفسهم وأتباعهم بأن الدين باطل والحق ضلال ، من وجهة نظرهم ، وأن الصواب والهدى ما وجدوا عليه آباءهم ، وما ورثوه من فساد العادات والتقاليد ،،

فالذى يكذب ليس من بيئة القرآن الكريم ، لا يمكن أن يكون الكذاب من بيئة القرآن الكريم ، مشركا ومنافقا ومجرما ومتشبها بأخلاق هؤلاء فى الكذب حتى يتوب .

كما قال عليه الصلاة والسلام فى المتشبهين بأخلاق المنافقين : "كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها"

٢- والنبى صلى الله عليه وسلم واسع الصدر ، قال الله عز وجل : " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ " ، اتسع صدره صلى الله عليه وسلم فى عرضه دعوته التى هى دعوة الحق ، واتسع صدره للرجل وللأعرابى الجافى ، وللمرأة والطفل والجاهل ، لأنه صلى الله عليه وسلم - كما قال - بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

واتساع الصدر وفق شرع الله الذى يثبت أن صاحبه من بيئة القرآن الكريم إنما يبدو حين يسمع كلام الله تعالى وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم ،،

انظر إلى الصديق رضى الله عنه حين نزل قول الله تعالى : "**وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾**"

وقد نزلت فى حادثة الإفك ، وهى معروفة ، وكان قد حلف ألا يعطى قريبا له (وهو مسطح) ما كان يعطيه لخوضه فى شرف ابنته ، فلما نزلت ، قال : بلى أحب أن يغفر الله لى ، وكفر عن يمينه ، ورجع له ما كان يعطيه .

ومعروف عن عمر الفاروق رضى الله عنه أنه كان وقافا عند كتاب الله ، دخل مجلسه رجل سيء اللسان ، وقال : يا عمر ، إنك لا تحكم بالعدل ، ولا تعطى الجزل ، فلما هم عمر بأخذه قال له ابن أخيه، وهو الذى استأذن له عنده : يا أمير المؤمنين ، إن الله يقول : "خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾" ، وهذا من الجاهلين ؛ فهدأت ثورة عمر ، وعفا عنه ، ولولا أن صدره – رضى الله عنه – اتسع حين سمع كلام الله عز وجل لما عفا عنه وقد أساء .

وكم من مواقف مثل هذه المواقف ، بل أقل منها بكثير تتطلب العفو ولا عفو ، وترى الناس تتلى عليهم الآيات البينات ، ويقولون : ولكن ! هذا أخطأ فى أمى ، وما أدراك ما أمى ، وهذا عرض بابنتى ، وهذا يرمى بالكلام على ، وهذا يشكك فى ذمتى ، إلى آخر الأمور التافهة ، وأقول تافهة ؛ لأنه ليس عرض أنقى ولا أصفى من عرض سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعهود عنه وهو سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أنه ما انتقم لنفسه قط ، وما غضب لنفسه مرة ، إنما كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل

فأى امرئ لا يغضب إلا لنفسه وعائلته ليس من بيئة القرآن ، وصدق الله العظيم إذ يقول : "وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ

لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾" ''

فتأمل هذه الصفات التى هى من مكونات بيئة القرآن الكريم :

١. الإنفاق فى السراء والضراء

٢. كظم الغيظ

٣. العفو عن الناس

٤. الإحســـــان

٥. سرعة الرجوع إلى الله

٦. عدم الإصرار على المعاصى

ونحن نربى الأجيال على ألا يكونوا بيئة صالحة لكتاب الله عز وجل ، نربيهم على الكذب ، وعلى المدافعة عن شرف الآباء والأمهات والأخوات ، وأن عليهم أن يسبوا من سبهم ، ويشتموا من شتمهم ، ويضربوا من ضربهم ، ويسرقوا من سرقهم ، وعليهم المبالغة فى ذلك ؛ فمن رشهم بالماء رشوه بالدم ، ومن ضربهم على وجوههم عليهم أن يضربوه على عينه ؛ ليفقد البصر ، وحتى لا يتجرأ غيره عليهم

فى الوقت الذى يحضرون فيه إلى خطب الجمعة والأعياد والمناسبات الدينية ، ويسمعون الخطباء يتحدثون عن العفو والصفح ، فإذا نظر أحدهم إلى أبيه ، قال له : هذا كان زمان .

وصار على معظم ألسنة الناس هذا التعبير (كان زمان) وصدقوا ، كان هذا زمان الناس الصالحين لكى يكونوا بيئة القرآن الكريم .

ولا يأس أن يكونوا هم كذلك بيئة صالحة للقرآن الكريم إن صحت النية ، وقوى العزم ؛ فالطريق إلى الله عز وجل واضح المعالم وميسر ، قال سبحانه : "**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾**" ، وقد ورد فى الصحيح أن الله تعالى ينزل (أى تتنزل رحمته) إلى السماء الأولى فى الجزء الأخير من الليل فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ ، فهلا قال كل مسلم : أنا ... أنا ... يا رب

والله تعالى يدعونا ليغفر لنا ، " وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ " ، تأمل قوله سبحانه " دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ "

٣- والأمانة من صفات الأنبياء المرسلين ، وهى من مكونات الشخصية التى تصلح أن تكون عضوا فى بيئة القرآن الكريم ، قال الله تعالى :" **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا** " ؛ ولأن الأسواق محل الصدق والكذب ، والغش والنجش (الزيادة فى الأسعار دون بغية الشراء) قال صلى الله عليه وسلم :"التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة والأمانة المعروفة برد الوديعة لمن أودعها عندك لها امتداد فى الأمانة فى العمل ، والأمانة فى حفظ الأسرار والأمانة فى الكتابة والشهادة ، والدين بكل ما فيه أمانة تقتضى الحفظ والرعاية ، قال تعالى : "**إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن**

تَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾" .

٤- والتبليغ من صفات النبوة كذلك ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : "بلغوا عنى ولو آية " ، ونحن لو توفرت لدينا القنوات ووسائل الاتصالات بالعالم الذى الذى قلنا بأنه أصبح قرية صغيرة ، فهل استثمرنا ذلك فى نشر الإسلام ، ودعونا الناس إليه ، كما قال تعالى : " ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ " ، أم ترانا فتحنا قنواتنا للهو والعرى ، ومخاطبة غرائز الناس دون فطرتهم .

٥- والفطانة من صفات النبوة ، ومعناها الذكاء والذكاء لدينا والحمد لله موجود ، لكنه مع الأسف منصرف إلى الذكاء فيما أسميه (الكيد والفقع) ، ليس ذكاء يقربنا من الله عز وجل من خلال فقه الدين ، واستنباط أحكامه ، والذود عنه ، الذى يحتاج إلى هذا الذكاء وإعمال العقل فيما يفيد الناس .

والعقل مناط التكليف ، كما تعلم ، قال تعالى : " إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾" ، وقال عز وجل :" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾" ، وقال تبارك اسمه : " إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ "

نحن فى حاجة إلى هذا العقل الذى يعرف كيفية التصرف فى المعضلات ، والأزمات ، والحياة فن يحتاج إلى معالجة ، ولا معالجة إلا بالعقل السليم الذى يوازن بين الأمور ، ويختار الأرجح والأنفع للفرد والأمة ، ونحن فى حاجة إلى العقل الجماعى الذى لا يعرف التعصب ، ولا الهوى ، وإنما يعرف الموضوعية ؛ فالموضوعية من أساسيات البيئة القرآنية ، قال تعالى : " **وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾** " ، وقال سبحانه : " **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾** "، ومراجعة جواب التولى فى القرآن الكريم واجبة خصوصا فى هذه الأيام التى كثرت فيها الفتاوى وتكلم فى دين الله – عز وجل – من يدرى ومن لا يدرى ، فأنت تقرأ فى الآية السابقة من سورة آل عمران :" **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾**" ، وتقرأ قول الله تعالى : "**وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾** " إلى آخر الآيات التى لا تفيد عنفا ولا قتلا ، ولا إرهابا .

النبى صلى الله عليه وسلم أسوة لنا

والله عز وجل يقول فى سورة الأحزاب : " **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾** "

والتأسى بالنبى – صلى الله عليه وسلم – معناه اتباع سنته وهديه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام ، كما جاء فى حديث عائشة – رضى الله عنها – خلقه القرآن ،

ومعنى أن خلقه القرآن أن ما جاء فيه من أمر كان عليه الصلاة والسلام أول من يفعله ، وما جاء فيه من نهى كان عليه الصلاة والسلام أول من يتجنبه

ومن ثم كان عليه الصلاة والسلام بينة قرآن ، وكذلك من آمن معه ، واتبع النور الذى أنزل معه ، وسلك سبيله ، واهتدى بهديه

والأوامر والنواهى القرآنية يمكن أن نحصرها فى أمرين :

الأول : العبادات

والثانى : المعاملات

والعبادات معروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج وتلاوة قرآن ، وما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من نافلة كالصدقة وغيرها .

والمعاملات أوسع وأشمل ، بل إنها روح تلك العبادات ، يقول **تعالى** : " إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ "، ويقول سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾" ، ويقول عز من قائل : "ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ"

وفى الحديث الذى أخرجه ابن عبد البر – رحمه الله – يقول النبى صلى الله عليه وسلم : "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا "

وحديث "أتدرون من المفلس" مشهور محفوظ ، ومفاده أن العبد يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج لكنه أساء معاملة المسلمين ، فشتم هذا وقذف هذا ، وضرب هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيؤتى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ، وطرح عليه ثم طرح به فى النار ؛ فالعبادة إن خلت من روحها لم يظهر أثرها فى سلوك العبد ، ولم تنفعه يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وما أشد حاجة الإنسان وما أشد حاجة الإنسان لى ما ينفعه فى هذا اليوم العقيم ، " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾" . والنبى صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم ، وبعث كما قال ليتمم مكارم الأخلاق ، وقد جاء فى معناها : أن تصل من قطعك وأن تعطى من منعك ، وأن تعفو عمن ظلمك.

إن الذى يتحلى بتلك المكارم الأخلاقية يثبت أنه من بيئة القرآن ، ومن أهل القرآن ، ولك أن تتصور صورة هذه البيئة التى لا تعامل بالمثل فى السوء ، وإنما كما قال ربنا فى أكثر من موضع يدرءون بالحسنة السيئة ، " وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ " .

وكما وجدت مفارقة بين واقع الدين وبين واقع الحياة أدركت البون الشاسع بين بيئة قرآنية حقيقية ، وبين بيئة تدعى أنها بيئة قرآن وهى ليست كذلك .

لوحة البيئة القرآنية

"إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم"

و هذه لوحة من لوحات البيئة القرآنية كما صورتها آيات الأنفال ، يقول تعالى :

" يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾"

وقد بدأت الآيات بالحديث عن القلوب التى تضطرب إذا ذكر الوعيد ، إنها قلوب حية نابضة ، وليست قلوبا ميتة ، أو فى غرفة الإنعاش ، ينبض لحظة ، ويسكت ساعات ، فهو ينيب الشفتين عنه فى المص والتحريك والنبض ، وما تغنى الشفتان عن القلب شيئا ، يحدث ذلك فى أيام الجمع والمناسبات العامة والخاصة التى تذكر فيها النار .

ومن الناس من يبكى ، وتنهمر دموعه ، ثم تجف سريعا ، وترى من كان يبكى بالأمس يضحك ساخرا اليوم بسوء سلوكه ، وارتكابه المناكير .

وهم الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، أى أنهم مؤمنون ، وتلاوة الآيات تزيدهم إيمانا ، وليسوا كالذين إذا قيل لهم اتقوا الله أخذتهم العزة بالإثم ، " وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ "

وهم الذين يتوكلون على الله ، أى ينجزون أعمالهم ، فالذى لا ينجز غير متوكل على الله ، وإن ادعى أنه من المتوكلين ، قال تعالى : " **وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾** " ، فماذا بعد العزم إلا الإنجاز ،،

وكم ضيعنا أهدافا ومشروعات عملاقة كان بوسعنا أن ننجزها ، وكان بمقدورنا أن نقوم بها خير قيام ، ولكنا تواكلنا ، وادعينا أننا متوكلون ، وتناسينا ما هو من عزم الأمور فى هذا الدين ، وهو التوكل على الله عز وجل حق توكله ، على المعنى الصحيح وهو الإنجاز ، فأين الإنجاز فى بيئة القرآن الكريم .

ويقول تعالى فى بيئة القرآن التى هى بيئة المؤمنين حقا : " الذين يقيمون الصلاة " ، وإقامة الصلاة لا تعنى فقط أنهم يؤدونها مجرد أداء ويخرجون بعدها إلى ضلال مبين ، وفسق ، وفساد فى الأرض ، وإنما يقيمونها على وجهها من طهارة تامة ، وخشوع وحضور قلب ، وهم يتحلون بروحها ، أى تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، قال الله تعالى : " **إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ** ".

ويقول تعالى : "**وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾**" ، **وفى معظم آيات الذكر الحكيم نجد اقتران الإنفاق ، وإيتاء الزكاة بإقامة الصلاة ، "يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ" ، "فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾" ، ويقول سبحانه : "قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ**

ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾" ، ويقول عز وجل : "فَلَا
صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾" وهكذا .

قال المفسرون : لأنه لا يؤتى الزكاة ، ولا ينفق فى الغالب إلا المصلون .

صفات مكتملة

وهذه الآيات من سورة المؤمنون تعد كذلك لوحة واضحة المعالم تمثل بيئة القرآن الكريم ، حيث يقول الله عز وجل : "قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾"

انظر إلى هذا الجمال الذى يبدو من خلال تلك اللوحة الرائعة ، مصلون خاشعون فى صلاتهم ، لا يتحركون ولا يهتزون ولا يحبون اللغو ، ويؤتون الزكاة ، ويحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم ، ولا يجاوزون ذلك ، ولا يعتدون ، وهم لأماناتهم وعهدهم راعون ، وهم يحافظون على صلواتهم ، إقامة وإفادة من روحها ، تأمل ذلك وانظر فى واقع الناس حولك ، هل ترى ذلك محققا ؟ حتى تقول وأنا قبلك إننا من بيئة القرآن الكريم .

بيئة الذين يدعون ربهم

وبيئة القرآن الكريم بيئة دعاء الله عز وجل بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ، قال الله تعالى فى آية الكهف : " وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ".

وقد نزلت هذه الآية الكريمة فى الأوائل البررة أمثال صهيب ، وعمار ، وبلال ، وخباب بن الأرت رضى الله عنهم ؛ فقد كانوا يجالسون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستشعر العلية من كفار مكة بأن مثل هذا المجلس لا يناسبهم ، وأرادوا أن يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء يوما ولهم يوما ؛ لأن رائحة هؤلاء تؤذيهم كما قالوا ؛ فنزلت الآية الكريمة لتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اصبر نفسك مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تطع هؤلاء الكاذبين .

والذين يدعون ربهم بالغداة والعشى هم الذين لا يفترون عن ذكر الله وعن العمل الخالص لوجه الله الكريم ، وهؤلاء هم بيئة القرآن الكريم ، التى هى مشغولة بذكر الله ، أى بذكر شريعته وأحكامها ، وذكر ما يرضيه عز وجل ، وما يغضبه ، فهم حريصون على العمل لما يرضيه واجتناب ما يغضبه

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بأن يصبر نفسه معهم ؛ فلا شك أن الأمر له امتداد فى أمته ، فجميع المؤمنين مأمورون بذات الأمر ، أى بصبر

النفس مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي كذلك ، فهل وجدنا من يصبر نفسه مع هؤلاء ويحب مجالستهم ، والتحدث إليهم ، وزيارة مريضهم ، وإطعام جائعهم ، وكساء عاريهم ، وإعانة محتاجهم ، إلى غير ذلك مما هو مقتضى صبر النفس عليهم ، وحبهم ، أم الناس معظمهم صاروا يهتمون بمن لهم عندهم مصلحة ، حتى ولو كان تاركا للصلاة مهملا لأمور دينه ، بل إن منهم من يقول له : إنك على صواب ، وغيرك من الملتزمين بالدين على خطأ .

بيئة القرآن الكريم تلاوة وعملا

وتصور لنا آيات سورة فاطر (٢٩ – ٣٢) أن بيئة القرآن الكريم هي بيئة التلاوة والتدبر والعمل وأنهم بشر ، منهم الظالم لنفسه ، ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله ، ثلاثة أقسام تجعلنا نسأل هذا السؤال المهم ، ترى هل يستمر الظالم لنفسه على هذا الظلم وهو بين مقتصد وسابق بالخيرات ؟

أم أنه سوف يرى هذا ، وذاك ، ولن يتركه هذا ولا ذاك على ظلمه ، بل سينصرونه من عدوان نفسه ، ويشجعونه على طاعة ربه ، يقول عز وجل : "
**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا
وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن
فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ
ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا
ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ
وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ**

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾"

فانظر كيف بدأت الآيات الكريمة بالتلاوة ، وثنت بإقامة الصلاة ، وثلثت بالإنفاق سرا وعلانية ، فأولئك يرجون تجارة لن تبور ، وبيئة القرآن الكريم بهذا بيئة إيمان وعمل ، والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وبيئة تلاوة للآيات البينات ، وعمل بمقتضى تلك التلاوة ، وقد جاء ذكر الصلاة والزكاة والصدقة ، والإنفاق فى سبيل الله كثيرا فى كتاب الله عز وجل ، قال سبحانه : "فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾" ، وقال جل فى علاه : " وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾" ، وقال تبارك اسمه : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ " ، إلى آخر الآيات ، فهل تتصور أن يقرأ هذه الآيات تارك الصلاة أو بخيل لا ينفق ، أو كسول غير مسارع فى الخيرات !

بيئة الاستئذان

وبيئة القرآن الكريم بيئة الاستئذان ، وهو من الآداب العامة الإسلامية التى ينبغى أن تتحلى بها تلك البيئة ، وليست بيئة الفوضى واقتحام البيوت بدون استئذان ولا تسليم على أهلها ، قال تعالى فى آيات سورة النور (٢٧ ـ ٢٩) :

" يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟

فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾"

والخطاب عام لكل المكلفين ومنهم الأرحام الذين يتناسون ذلك التوجيه الكريم الذى يثبت حضارة الإنسان المنبثقة من هذا الدين الحنيف ، وللتحضر آيات منها الاستئذان ، لا سيما الاستئذان على أهل البيوت الآمنين فى منازلهم ، وللبيت حرمة مع الأسف الشديد تنتهك بالهجوم المفاجئ ، وعدم الاستئذان والزيارة المفاجئة على غير موعد ولا ضرورة ، وكثير من الزائرين يطيلون البقاء ، فيحرجون رب البيت وهم الثقلاء ، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى ضوء آية الأحزاب : "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ......" ، وفيها يقول تعالى : "فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ"

بيئة الاستغفار

وبيئة القرآن الكريم بيئة استغفار ، "فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ

أَطْوَارًا ﴿١٤﴾" ، ويقول تعالى فى آية الأنفال : "وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾"

ويقول عز وجل فى عباده المؤمنين الذين أعد لهم ما هو خير من زينة الدنيا من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث ، " ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾"

ويقول عز من قائل فى عباده المتقين الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض : "وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾"

ويقول ربنا سبحانه فى عباده المحسنين : "كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾" .

ومأساة أمتنا فى الاستغفار أن كثيرا من الناس يفهم الاستغفار على أنه استغفار باللسان ، يقول لك أنا أستغفر الله فى اليوم الف مرة ، أو عشرة آلاف مرة ، وأذكر ذات مرة أن رجلا أهدى إلى أحد العلماء مسبحة ، وقال له : أهديك هذه المسبحة وهى عزيزة على نفسى وقلبى ؛ فقد سبحت عليها مليون مرة ، واستغفرت عليها عشرين مليون مرة ، ثم تنهد ، وأخذ يقول : آه .....آه.....آه ، ويضع يده على صدره ،،

فقال له ذلك العالم : أعرف منك أنك مقاطع أختك الشقيقة منذ أعوام ، فهل وصلتها ، وقطعت خصومتك بها ، فقال : معاذ الله ، إنها وإنها وإنها ، وأنا لن أصلها ما دمت حيا ، لقد جرحت شعور زوجتى أم فلان ، وأم فلان هذه من أولياء الله الصالحين ، نجفة ، وذاكرة لله عز وجل ، وصوامة وقوامة ، تقوم الليل ولها كرامات ، وسوف أوصى أولادى من بعدى ألا يعرفوا هذه العمة الخبيثة .

بيئة الشورى

فى سورة الشورى ، والشورى تقرع الأسماع اسما لسورة كريمة ، فهى بمثابة العنوان ، والعنوان الصحيح الذى يرد من أول نظرة على أولئك الذين يقولون نحن لا نعرف الشورى ، ولا نشاور احدا ، نحن الذين تخرج كلماتهم من رؤوسهم ، كطلق الرصاص ، ولا شك أن صاحب المصلحة يفرح بذلك ؛لأنه يريد إنجازا لمصلحته ، وتحقيقا لغايته ومأربه ، فيهتف فى وجه من يقول له ذلك : أنت رجل وابن رجل ومن ظهر رجل ، وهكذا يكون الرجال . وهذا بلا شك ضلال ، يثبت أن القائل والمقول له ليسا من بيئة القرآن الكريم ؛ فبيئة القرآن الكريم بيئة شورى ، قال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم : " **وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ** " .

وهو صلى الله عليه وسلم أغنى الناس عن مشاورة الناس ؛لأنه مؤيد بالوحى ، واكنه التاسى ، "**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾**"

وقد شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه وأخذ برأى أبى بكر فى أسارى بدر ، فلم يقتلهم ، وأخذ برأى الحباب بن المنذر يوم بدر ، وانزل الجيش فى المكان الذى رآه ، وأخذ برأى سلمان الفارسى ، فحفر الخندق ، وأخذ برأى السعدين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فلم يعط الأحزاب شيئا من تمر المدينة حتى ينصرفوا عنها ، وأخذ برأى أم سلمة يوم الحديبية فذبح هديه ، وحلق رأسه أمام الناس ، ففعلوا كما فعل .

والله تعالى يقول فى آيات الشورى (٣٦- ٤١) : "فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾"

وتلك معالم بيئة القرآن الكريم كما تصورها هذه الآيات :

١. أيمان بالله وتوكل عليه وحده

٢. اجتناب كبائر الإثم والفواحش

٣. والغفران عند الغضب

٤. والاستجابة لله عز وجل

٥. وإقامة الصلاة

٦. والشورى

٧. والإنفاق مما رزق الله

٨. والانتصار بعدل عند البغى

٩. وإيثار العفو على الانتقام المشروع ، "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾"

وهى كما ترى معالم فيها ما يتكرر كثيرا ، وذلك مثل الصلاة والإنفاق فى سبيل الله ، مما رزقهم الله عز وجل

والتوكل على الله تعالى يعنى الإنجاز ، وقد ذكرت ذلك ،واجتناب كبائر الإثم والفواحش .

ولعلنا نلاحظ فى هذه الآيات المحكمة أن ما عند الله عز وجل وما ادخره لعباده المؤمنين الذين يتوكلون عليه وحده خير من الدنيا وما فيها ؛ إذ متاع الدنيا قليل

وما أود أن أذكره هنا أن هذا الذى يتمتع به المؤمن فى الدنيا من نعيمها لا يتعارض ونعيم الآخرة ، فمن دعاء القرآن الكريم "رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾"

وقد ثبت فى الصحيح أنه كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم ، أى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول كثيرا : " اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"

فبيئة القرآن الكريم ليست بيئة عداوة للحياة الدنيا ، وإنما هى بيئة المعادلة بين الدنيا والآخرة ، والفكر الذى شاع فينا بمعاداة الدنيا ، وتطليقها بالثلاث زعما بأن لنا الآخرة ، ولغير المسلمين الدنيا فكر غير صحيح ، وكان له مع الأسف دور كبير فى تخلف الفرد والأمة ، والدليل على ذلك تراجع الأمة وتخلفها اقتصاديا ، وبور أرضها وتعطل شبابها ، وانتشار الأوبئة والأمراض فى أهلها ، وغير ذلك من المآسى فى الوقت الذى تقدمت فيه الدول ، وارتفعت راياتها ، وترتب على هذا الفكر ما أسميه (عك – يعك – عكا) من فهم الرضا والقناعة على غير وجهها الصحيح .

فمعنى أنك راض أنك بذلت كل ما فى وسعك من جهد ، وفى النهاية حصلت على نتيجة تراها دون مستوى ما بذلت ، ومعنى أنك قانه أنك لا تمد عينيك إلى ما متع به ربك غيرك ، قال تعالى : "**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾**" ، وقال سبحانه : "**وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾**"

وليس معنى الرضا أن ترضى بالقليل مع قليل العمل ، وأن تنام وأنت فى وسعك أن تعمل قائلا : أنا راض ، أو أن تكون سيارتك فى حاجة إلى إصلاح وتمشى بها ، وأنت تقول : أنا راض ، وتمشى بها وأنت على مقربة من ارتكاب حادثة ، أو تعطل على الطريق ، فليس هذا من قبيل الرضا المعتبر شرعا .

وليس معنى القناعة أن تعمل ساعتين وفى وسعك أن تعمل عشر ساعات ثم تقول : قنعت ، أو أنا قانع ، فليست هذه قناعة

وبعضهم يقول : أنا حصلت قوتى ، وقوت أولادى ، فلم الزيادة على هذا ؟ ، ولا يدرى أن للمال رسالة فى الحياة ، وليست رسالته فى تحصيل قوتك ، وقوت ولدك ،وغنما وراء ذلك صلة رحم وحسن جيرة ، ومعاونة مسكين ومحتاج ، وغير ذلك من الأمور ، فمن زعم أن جهده فقط من أجل نفسه ، وولده كان على خطأ .

معالم على طريق البيئة القرآنية

(عند الابتلاء)

فى موقف واحد ، هو موقف الشدة ، انقسم الناس فريقين ، المنافقين والمؤمنين ، فالمنافقون عند الشدة قالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وسجل التاريخ قول بعضهم : لئن صدقنا محمد فيما وعدنا به ، فنحن أكفر من حمير ، وبعضهم قال : وعدنا محمد بملك كسرى وقيصر ، ونحن لا نستطيع قضاء حاجتنا ، وذلك عندما هجم الأحزاب على المدينة ، قال الله تعالى : "**وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾**"

وأما المؤمنون فقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، قال تعالى : "**وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾**"

انظر إلى بيئة القرآن الكريم عند الابتلاء الذى يصهر ما فى القلوب والصدور ، إنهم لا يقولون بقول المنافقين الذين هم كافرون ، وإنما يتذكرون قوله تعالى : "لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾" ، وقوله عز من قائل : "وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾" ، وقول الله ربنا : "وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾".

إن بيئة القرآن الكريم هى تلك البيئة المخاطبة بتلك الآيات الكريمة ، التى تفيد أن الدار دار الابتلاء ، وأن الله عز وجل يبشر الصابرين الذين قال فيهم : " فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾" ، تلك هى البيئة الصابرة المحتسبة الجلدة ، القوية التى تواجه الابتلاء وفق منهج القرآن الكريم ، أى بالصبر والاحتساب والقوة ، "قُل لَّن

يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾" .

بيئة الشدة والرحمة

على من تكون شدة المؤمنين ، وما موطن رحمتهم ؟ هذا ما وصفته وبينته الآية الأخيرة من سورة الفتح ، حيث يقول ربنا تعالى : "مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾"

هذه صورة من الصور المشرقة لبيئة القرآن الكريم ، تعلوها وفى مقدمتها صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صورة أمته التى شرفت بتلك المعية ، ونسأل الله أن نكون معه فى الدنيا باتباع هديه ، وفى الآخرة بالقرب منه فى جنته ، فتلك المعية ثابتة إلى قيام الساعة على هذا المعنى .

وهو صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وتلك بيئة القرآن الكريم ، بيئة الشدة فى موطن الشدة ، وبيئة الرحمة فى موطن الرحمة ، وموطن الشدة الكفار ، وموطن الرحمة المؤمنين ،،

فإذا تحقق هذا المعنى فى بيئة كانت تلك البيئة بيئة القرآن الكريم ، والشدة على الكفار تكون فى قتالهم إذا دعت الضرورة إلى القتال ، وقد قال تعالى : "يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾" ، وقوله تعالى : "وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ" الذى ختمت به الآية يدل على أن المؤمنين لا ينفكون عن التقوى ، فى السر والعلن ، والوحدة والاجتماع ، والسلم والحرب .

فليس معنى الغلظة أن نعتدى ، وقد قال ربنا فى سياق القتال من سورة البقرة :
"وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾"

وليس معنى الغلظة أن نمثل بهم ، وليس معنى الغلظة أن نقتل أسراهم ، أو نعذبهم بضرب أو جوع أو غيرهما ، وإنما معناها أن نثبت عند لقائهم ، وأن نتحرف لقتال ، فلا جبن ولا خوف ولا فرار ، فإن الفرار يوم الزحف من الكبائر ، ومن الموبقات كما جاء فى الحديث الشريف الصحيح ، ، والرحمة بين المؤمنين من مقتضياتها :

١- أن يوقر الكبير
٢- وأن يعطف على الصغير
٣- وأن يطعم المسكين
٤- وأن يكرم الضيف
٥- وأن يحسن إلى الجار
٦- وأن يقرض المحتاج قرضا حسنا
٧- وأن ينظر المعسر

٨- أو أن يتصدق عليه

٩- وأن يزار المريض

١٠- وأن يشمت العاطس

١١- وأن يجاب الملهوف

١٢- وأن يعلم الجاهل

١٣- وأن يوصل القاطع

١٤- وأن نعفو عن المسيء

١٥- وأن تحسن العشرة بين الناس لا سيما الأزواج

١٦- وأن يقبل عذر المعتذر

١٧- وأن يطلق الوجه عند لقائهم

١٨- وأن نسلم عليهم

١٩- وأن نرد عليهم السلام

٢٠- وأن نحسن الظن بهم

٢١- وأن ينصح بعضهم بعضا

٢٢- وأن نبدى الصواب لمن يستشير ، فالدين النصيحة ، والمستشار مؤتمن ، كما قال صلى الله عليه وسلم .

٢٣- وأن يشعر بعضنا بفرح بعض

٢٤- وأن يشعر بعضنا بألم بعض ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : "مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ".

بيئة الاستقامة

وبيئة القرآن الكريم بيئة استقامة ، تأمل قول الله تعالى ، فى آية فصلت (٣٠) :

"إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾".

والسؤال هو على أى شىء استقام هؤلاء الذين تتكون منهم بيئة القرآن الكريم ؟

يجيب عن هذا قول الله تعالى فى آية هود : "فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾"

وما أمر الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم واضح ، وأهمه ما يلى :

١. إقامة الصلاة

٢. إيتاء الزكاة

٣. صوم رمضان

٤. حج البيت من استطاع إليه سبيلا

هذا بالنسبة إلى العبادات ، وأما بالنسبة إلى المعاملات فكثير جدا ، ومنه :

٨- العفو

٩- الصفح

١٠- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

١١- التواصى بالحق

١٢- التواصى بالصبر

١٣- التواصى بالمرحمة

١٤- بر الوالدين

١٥- صلة الأرحام

١٦- كظم الغيظ

١٧- الإحسان فى كل شىء

١٨- ذكر الله كثيرا على الوجه الصحيح

١٩- كفالة اليتيم

٢٠- حسن الجيرة

٢١- حسن الخلق

٢٢- أكل الطيبات بالحلال

٢٣- البعد عن الخبائث

٢٤- الرضا بقضاء الله وقدره

٢٥- الصبر

٢٦- اجتناب الكبائر

٢٧- عدم السخرية من الناس

٢٨- عدم الاستهزاء والتنابز بالألقاب وسوء الظن

٢٩- عدم التعامل بالربا

٣٠- إصلاح ذات البين

٣١- الحض على إطعام الطعام

٣٢- التواضع

٣٣- لين الجانب

٣٤- العمل بمقتضى الأخوة فى الدين

٣٥- تقوى الله تعالى فى السر والعلن

٣٦- صناعة المعروف لوجه الله تعالى

٣٧- الاستغفار من الذنوب

٣٨- التوبة النصوح

ومن التوبة النصوح أقول ، ليس معنى الاستقامة أنه لن يحدث من بيئة القرىن الكريم انحراف ، أو أخطاء وذلك لأن هذه البيئة بيئة بشر ، وليست بيئة ملائكة مقربين ، ولا أنبياء معصومين ،،

لكن معنى الاستقامة أن يكون لتلك البيئة منهج تسير عليه وتحرص ، فإن نزغها من الشيطان نزغ استعاذت بالله تعالى من الشيطان الرجيم ، قال الله عز وجل :
"وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾"

وإن وقعت فى شيء من المعاصى تذكرت وعيد الله تعالى فاستغفرت ، وتابت وأنابت ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل فى عباده المتقين الذين أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ، "وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟

فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ
ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾" .

بيئة بلا هلع

وبيئة القرآن الكريم بيئة بلا هلع ، لا خوف فيها ولا فزع ، وذلك بسبب الصلاة ، تلك الصلاة التى تخرج الإنسان عن أصل بنى جنسه ، الذى يجزعون عند الشر
ويمنعون عند الخير ، وهذا هو معنى الهلع ، قال الله تعالى : "إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ
هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ
﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ
﴿٣٥﴾" وقد بدأت الآيات بالصلاة فى تلك اللوحة وانتهت كذلك بالصلاة ، دواما فى البدء وحفظا فى الختام ، ،

وقد رايت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خصها بالذكر يوم هجم الأحزاب من كل صوب على المدينة المنورة فجأة ، حيث قال : "ملأ الله بيوتهم نارا شغلونا عن صلاة العصر"

مع أن الأحزاب شغلوا المسلمين عن أشياء كثيرة ،أى عن حركة الحياة بصفة عامة ، لكنه خص الصلاة بالذكر ؛ لأنها عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ،

ومن هدمها فقد هدم الدين ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول : "أرحنا بها يا بلال" ، وقال عليه الصلاة والسلام : "وجعلت قرة عينى فى الصلاة" .

ولا شك أن فينا من لا يداوم على الصلاة ، فهو يصلى يوما ويترك الصلاة أياما ، وفينا من لا يصلى إلا الجمعة ، وفينا من لا يصلى إلا فى رمضان ، ولذا كان الناس يقولون من قديم (ومن بعدك يا رمضان تهجر المساجد، ويقل فيها الراكع والساجد)

وانظر إلى روح الصلاة فى تلك اللوحة الرائعة ، والتى تجسدت فى الثبات ، واستقرار النفس ، وفى الإنفاق ، والإشفاق من عذاب الله ، والمسلم بين الرجاء والخوف دائما ، وحفظ الفروج إلا على الأزواج ، أو ما ملكت الأيمان ، وحفظ العهود والأمانات ، والقيام بالشهادات على وجهها ، وهم يحافظون على صلاتهم بتلك الروح التى تحقق هذا الجمال .

انظر إلى تلك البيئة ، فقد اتضحت معالمها أمام عينك ، بيئة فيها العطاء الذى هو حق ،" وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ " ، وقد قال ربنا تعالى : "فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ "

وفيها صون الفروج ، فلا عدوان بزنا ، ولا سير فى اتجاهه ، قال عز وجل : " وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾"

وبيئة أمانة ، وأمانة مرعية ، مادية كانت أو معنوية ، كالعهود ؛ فإنها من الأمانة بمكان ، قال تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ " ، وقال سبحانه : "وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾" .

بيئة التقوى

وفى آيات آل عمران (١٥ -١٧) يقول الله عز وجل : "قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾" ، قال تعالى : "للذين اتقوا " ، وذكر من صفات المتقين اهتمامهم بالدعاء الأنجح (اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) ، وقد استند دعاؤهم على إيمانهم (ربنا إننا آمنا) ، وعلى الصفات التى ذكرها ربنا تعالى فى هذه الآيات الكريمة من الصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق ، والاستغفار بالأسحار (السحر: الجزء الأخير من الليل)

ومن معطيات هذه الآيات الكريمة ، أن هناك صفات للمتقين منها الصبر ، والصدق ، والقنوت (الاجتهاد فى العبادة) ، والاستغفار فى الوقت الذى يطيب فيه المنام ، ومن صفات المتقين كذلك ما جاء فى آيات آل عمران (١٣٣–١٣٦) :"وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ

جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾" .

وتلك الصفات هى :

٨- الإنفاق فى السراء والضراء

٩- وكظم الغيظ

١٠- والعفو عن الناس

١١- والإحسان فى ذلك كله وفى غيره

١٢- وذكر الوعيد عند فعل المعاصى ، والاستغفار .

ونحن نتوقف عند هذه الصفات ، بمعنى أننا نود إلقاء الضوء عليها بما يبرز لنا المفارقة بين صفات هؤلاء ، وبين ما نحن عليه

١- الإنفاق فى السراء والضراء ، ومعنى ذلك الدوام على تلك الفضيلة ، وقد سئل – صلى الله عليه وسلم – عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال : "أدومها وإن قل " كما روى البخارى فى صحيحه وغيره

وقد سبق أن ذكرت هذا الدوام فى ضوء قوله تعالى : " والذين هم على صلاتهم دائمون"

إنه الدوام على الصلاة ، والدوام على الصدقة ، والدوام على كل فضيلة .

ولى دراسة تحت عنوان : " المعهود عن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم" ومنه أنه كان عليه الصلاة والسلام ، أكرم الناس وأجود الناس ، وكان أكرم

ما يكون في رمضان ، ومن الناس من يكون كريما في رمضان ، فإذا ولى الشهر الكريم عاد سيرته المعهودة ، وهي الإمساك ، وهكذا مما جعل الدين عند الناس حالة ، لا حياة ، والدين إنما هو حياة لا حالة ، تتوهج فيها أضواء المكارم ، ثم تختفي فجأة ، فإذا هذه الأضواء التي ملأت الدنيا نورا ظلام دامس ، لذا قال عليه الصلاة والسلام : "أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل"

٢- وتأمل كظم الغيظ الذى يفيد بأن المتقين يغتاظون ، وما أكثر أسباب الغيظ ومظاهره في الدنيا ، والمتقون بشر ، يغيظهم ما يغيظ البشر ، وإن كان هناك تفاوت ، من حيث إن ما يغيظ غيرهم ليس من الضرورة أن يغيظهم ، لدرجتهم العالية وسموهم ، ورفعة شأنهم ، لكن هناك ما يغيظهم بلا شك ، ولكن لا تبدو آثار هذا الغيظ عليهم من تغير الوجوه ، وانحراف الأسلوب ، وسب التعامل مع الناس ، وإمطار السيء من الكلمات ،،

إنهم يغتاظون ولكنهم يكتمون آثار هذا الغيظ بحيث تراهم ، فتقول : إنهم بلا غيظ ، وكذلك يبدون وهم صابرون ، ألا ترى إلى قوله تعالى في آية آل عمران : "وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾" ، هؤلاء هم الصابرون الذين لا يبدو عليهم وهن ولا ضعف ولا استكانة ، فأنت تراهم وقد أصابهم ما يستدعي الصبر وكأنهم بلا مصاب انظر إليهم هكذا ، تقول : إن شيئا لم يصبهم مع أنهم مصابون ، وكذلك تراهم وقد غاظهم من غاظهم ، وكأن أحدا ما غاظهم، وكأن شيئا ما غاظهم

٣- وكذلك العفو عن الناس ،(والعافين عن الناس) ، والعفو لا يصدر إلا من واسع الصدر ، وما أوسع صدور المتقين ، التي وسعها الإيمان ، والرجاء في

عطاء الله تعالى ، فى الدنيا ، ورحمته فى الآخرة ، "وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ"

٤- وذكر الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة على حذف مضاف ، أى ذكروا وعيد الله تعالى (النار) ، وليس معنى ذكر الله أن يرددوا على ألسنتهم لفظ الجلالة (الله ، وحى ، وقيوم) ، وهكذا ، وما أكثر الذين يذكرون الله تعالى باللسان وهم عن ذكره على هذا النحو غافلون ، فهم يذكرون الله باللسان ، ويفعلون المنكرات ، وذكر الله عز وجل على حذف مضاف ، إما وعد وإما وعيد ، فالوعد كما فى قوله سبحانه : "أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾" ، أى ألا بذكر وعد الله تطمئن القلوب ، وما أشد حاجتنا إلى هذا الذكر الذى يضاعف الحسنات بذكر الوعد الصادق عليه ، ويؤدى إلى اجتناب المنكرات بذكر الوعيد الصادق عليها ، فوعد الله حق .

عباد الرحمن

وفى آيات الفرقان (٦٣ – ٧٦) : "وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ

ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ
فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾"

ونقف عند هذه الصفات على هذا النحو :

١- أنهم يمشون على الأرض هونا ، فهم متواضعون

٢- وأنهم لا يتعرضون للجاهلين

٣- والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما

٤- والذين من دعائهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما)

٥- والذين يعتدلون فى الإنفاق ، فلا بخل ولا إسراف

٦- والذين يجتنبون الكبائر ، ومنها الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والزنا

٧- وهم إن حدث منهم شيء من ذلك تابوا إلى الله تعالى وعملوا أعمالا صالحة : "إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا"

٨- والذين لا يشهدون الزور

٩- والذين يمرون كراما باللغو

١٠- والذين يقيمون الدين ألا لا يتلون كتاب الله عز وجل وهم لا يعملون بما فيه

١١- والذين من دعائهم (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين إماما)

١٢- والذين هم صابرون

تلك هى بينة القرآن الكريم ، وهل هناك ما يمثلها إلا عباد الرحمن الذين هم كما وصفهم ربنا عز وجل يمشون على الأرض هونا ، فإنهم لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولا ، وقد ورد فى الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه ، قول النبى صلى الله عليه وسلم : "إن الله أوحى إلى أن تواضعوا" ، ومن تواضع لله رفعه الله ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مثالا فى التواضع ،،

وفى هذا التواضع كلمة أرى أنه من الحق والواجب أن تقال وهى مبنية على المعادلة ، والدين قائم على المعادلة ألا وهى : أنك يجب أن تعرف للمتواضع حقه مهما يتواضع والدليل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مثالا فى التواضع ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم مثالا فى توقيره وتعظيمه ، والله عز وجل يقول : " **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾**"

وقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يزعم أنه ملك من الملوك ، فراعه ذلك وارتعد فهون عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بأن قال له : " هون على نفسك فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة" ، فهل يجوز أن يقول هذا الرجل أو غيره فى صلاته على النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم صل على ابن المرأة التى كانت تأكل القديد بمكة ؟؟

هذا لا يجوز بحال ، وهذا الدرس مهم جدا فى سياق الحديث عن بيئة القرآن الكريم ، ومفاده وخلاصته أنك تحفظ لمن تواضع معك مكانته ، وأن تعرف له قدره ، وتنزله منزلته اللائقة به ، قال صلى الله عليه وسلم : "أنزلوا الناس منازلهم"

لكن واقع الحال مع الأسف على خلاف ذلك حيث إنك تجد الرجل يتواضع مع الرجل فإذا الذى تواضع عنده أو معه يعامله على هيئة التواضع ، وينسى منزلته ومكانته ، كأنه قد صدق أنه كذلك ، فهو يفهم التواضع من الضعة والانحطاط ، ولا يفهمه من مكارم الأخلاق ، والتنازل ، والمقامات محفوظة ، كما كان يقال من زمن طويل ، فما عادت المقامات محفوظة مع التواضع بل يناديه بقوله (يا عبده) إذا كان اسمه (عبد الله أو عبد الرحمن) ، ويقول له : يا جدع انت ، وخبر إيه يا بتاع .... ، ونحو ذلك كثير

الأمر الذى قد يجعله يندم على تواضعه ونزوله من منزلة الوقار حتى يؤنس الناس إلى منزلة الدون لكى يرفعه الله ، وكذلك من يتواضع معه

وهم الذين لا يتعرضون للجاهلين ، قال سبحانه : "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" ،وقد قال سبحانه : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"

وكما قال ابن القيم رحمه الله معنى قوله " سلاما" ، أى أنهم قالوا قولا سلاما ، أى أنهم لا يقولون لهم لفظ " سلاما " ، وإنما سلاما صفة لموصوف محذوف ، تقديره " قولا " ، أى : قولا سلاما .

هذا هو الأصل الأصيل فى دين الله الذى يقيمه المؤمنون الذين هم بيئة القران الكريم

فانظر إلى واقعنا الآن تجد معظم الناس يردون على الجاهل بجهل ، وعلى السفيه بسفاهة ويعتقدون أن ذلك واجب حتى يتعلم ويتأدب ، كما يعتقد بعضهم أن عدم رده على الجاهل يدفعه إلى مزيد من التعدى ، أو يصور له أن هذا الساكت عن الرد ضعيف غير قادر على الرد ، وغير ذلك من الفلسفات التى قد تبدو مقنعة وهى ليست كذلك ؛ لأن الله تعالى يقول " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" وإذا جاء نهر الله فقد بطل نهر معقل .

والأمر الذى نجده من الفحش بمكان أن يرد على الجاهل ، وقد شكت إلى إحدى تلميذاتى بالجامعة أن طالبة من بيئة شعبية شتمتها بأبشع الكلمات ، وسألتنى : هل ترد عليها ؟ فذكرتها بهذه الآية ، ثم قلت : إنك لست مثلها فى هذه الثقافة الفاسدة حيث إن لديها قاموسا من البذاءة ليست عندك ، فأنت لا تملكين الرد إلا بكلمة أو كلمتين ، لكنها موسوعة فى الرد السىء ، وعندئذ يزداد غضبك وحنقك وتصد الغصة فى حلقك كل معنى صادر من قلبك للعفو والصفح ، فلا تفتحى على نفسك ومحبيك بابا من الأذى خطيرا ؛ لأن الكفاءة فى السوء غير موجودة بينكما ، فصونى كرامتك بقول السلام ، وارتقى بما عندك من فضيلة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "

وإذا تحقق ذلك فى بيئة كانت بيبنة بلا شجار ، ولا أذى ، ولا سباب ، ولا لعان ، ولا فاحشة ، وتلك بيئة القرآن الكريم .

ثم انظر إلى الليل فى بيئة القرآن الكريم ، فهو إما ليل نائم ، " وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾" ، وإما ليل قائم : "كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾" .

فالمسلم بالليل إما نائم فيستريح ، وإما قائم يصلى ويقرأ القرآن ، "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ "

وليس ليل البيئة القرآنية ليل عربدة ، وسهر فارغ ، ومؤتمرات غيبة ونميمة ، ،

ولعلنا نتوقف عند دعائين من أدعية عباد الرجمن :

الأول : قولهم " ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما" ، وهو دعاء ملتبس بالقرآن ، أى مرتكز على العمل الصالح ؛ فهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، ويقولون : " ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما" ، وفرق كبير بين أن يدعو بهذا الدعاء امرؤ يبيت لربه ساجدا قائما ، وبين أن يدعو به امرؤ ليله سهر فارغ ، وعبث طويل ، وإضاعة مال ووقت فى المعاصى والآثام ، فالأول لدعائه (عكاز) ومستند يستند عليه ، والثانى أعرج بلا عكاز ولا مستند ، فهو لا يقوى على المسير فوق الأرض فضلا عن صعوده إلى السماء !

والثانى : قولهم " ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما"

وهو مرتكز على مستند كذلك ، حيث إنهم لم يخروا على أيات ربهم صما وعميانا ، وهم يتلون الكتاب الكريم ، ويعملون بمقتضى هذه التلاوة ، ومن عمل بمقتضى تلاوته أحل حلال القرآن الكريم ، وحرم حرامه ، ومن أحل حلال القرآن الكريم وحرم حرامه كان من بيئة القرآن الكريم ، التى إن صدر عنها دعاء صعد إلى رب الأرض والسماء ، فاستجيب له .

وبينة القرآن الكريم ليست بينة ملائكة ، معصومين ، ولا أنبياء مبعوثين معصومين كذلك ، وإنما بينة بشر ، وشأن البشر أنهم يصيبون ويخطئون ، لكنهم إذا كان منهم خطأ استغفروا الله عز وجل وتابوا إليه ، توبة نصوحا ، وعملوا إثر توبتهم أعمالا صالحة على نقيض ما عملوا قبل التوبة ؛ فقد قال تعالى :" إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وليس كما يزعم الهواة من الدعاة أنه مجرد التوبة يبدل الله سيئاتهم حسنات ، أي أنهم يريدونها توبة بلا عمل بعدها ، وهذا لم يقله عالم من العلماء .

أولو الألباب

وبينة القرآن الكريم بينة العقلاء ، أولو الألباب ، فما صفات أولى الألباب ؟

يقول الله تعالى فى آيات الرعد (١٩ – ٢٢) : "أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ "

لطالما تفكرت فى معنى "الألباب" فى ضوء هذه الآيات وغيرها ، اى ما صلة العقل بما ذكر فى هذه الآيات ، حيث إن ذكره مظنة الحديث عن قضايا عقلية كيماوية وفيزيائية ، وتكنولوجية محضة ، والحق أن للعقل أثره الكبير ، وله صلة وثيقة بما ذكر فى هذه الآيات ، وهو العلم بأن ما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم حق ، ولن يروه حقا إلا إذا أعملوا فيه عقولهم ، وقد قال تعالى : "

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)" ، والنظم الجليل واضح فى أنه ليس من كلام الإنس والجن ، وقد قال من لم يؤمن به : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام الإنس والجن ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، والحق ما شهدت له الأعداء .

وكذلك الوفاء بالعهد : " **ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ** " ، فالوفاء من قضايا العقل ؛ لأنه على السوية ، بخلاف الخيانة والغدر فإنها من آيات النفوس المريضة ، والذى يصل ما أمر الله به أن يوصل هو العاقل وذلك لأنه عمل بمقتضى الإيمان الذى هو تصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح ، ومن جملة ما أمر الله به أن يوصل ، أن تصح العقيدة ، فلا شرك ولا جدل ، ولا خرزة زرقاء ، ولا طيرة ولا تشاؤم ، وأن يحسن العمل ويتقنه ، وأن تؤدى الأمانة إلى أهلها ، وأن يحسن الجوار ، وتوصل الأرحام ، وتقام الشهادة على وجهها ، وحاديهم إلى ذلك خشية ربهم وخوف سوء الحساب ، وهم الذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم ، لا ليقال إنهم أقوياء ، والذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم هم الذين يبدون أقوياء كما ذكرت قبل ، وتراهم فى قوتهم ونشاطهم تقول : إنهم بلا مصاب .

وهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ، وهم الذين يدرؤن بالحسنة السيئة ، أى يدفعون السيئة بالحسنة ، قال الله تعالى : " **وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤)** "

ولا يستطيع أن يدرا بالحسنة السيئة إلا من اتسع صدره لأوامر القرآن الكريم ونواهيه ، فلم يتبع هواه ، وإنما اتبع الذكر الحكيم الذى رآه حقا ؛ ولذا قال الله تعالى : " وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ "

انظر إلى بينة القرآن الكريم فى هذا الموضع وفيما سبق ، وفيما سيأتى إن شاء الله كيف تقابل السيئة بالحسنة وكيف يبدو أثر ذلك فى البينة كلها ، حيث يحد من السوء ، وحيث يسود الحسن ، ثم تتحول الصورة كلها إلى الحسن ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل : " فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

الفصل الثالث

فى قيمة المآل وغياب القيم

قيمة المآل

النظر إلى المآل عصمة من الوقوع فى سيء الحال ، وهو قيمة غالية ، وغياب هذه القيمة أدى إلى مفاسد عظيمة أهمها ما ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين ١٥١/٤ ، حيث قال : " إن الحيوان يقبل على ما لذ وطاب من الطعام ، الذى قد يكون سببا فى مرضه ، أو هلاكه ، وذلك لأنه لا يعنيه إلا أن يشبع غريزته الآن ولا ينظر إلى المآل ، خلاف الإنسان الذى ميزه الله تعالى بالعقل"

ومعنى ذلك أن غياب قيمة المآل تجعل الإنسان كالحيوان ، وما أسوأ أن يكون الإنسان كالحيوان ، قال عز وجل : " **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾** "

انظر إلى صورة الإنسان كيف كانت فى مثال يدل على هذا التكريم "**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾** " وانظر إليه وقد وهب العقل الذى من أهم ثمراته النظر فى المآل ، ومعرفة الله عز وجل ، كما قال الغزالى كذلك فهو بعقله لا يقبل على طعام شهى جميل منظره ، وهو يعرف مثلا أنه مسموم بخلاف الحيوان ، أو يعرف أنه يضره ، بأن كان مريضا بمرض معين يحول بينه وبين تناول مثل هذا الطعام الذى يزيده مرضا على مرضه ، فمريض السكر الذى يجمع فى وجباته بين الصنوف التى تزيد نسبة السكر فى دمه ، فتراه بعد تناول هذه الصنوف وقد جف ريقه ، وانتشر اللهيب فى أعضائه ، وربما أصيب بإغماء طويل ، وقد يتحول علاجه من الأقراص إلى الحقن المعروفة بالإنسولين ، ناهيك بما يتسبب عن ذلك من أضرار بعينه وأسنانه ، وكليته ، وكبده

وما كان أغناه عن ذلك كله لو أنه اقتصد فى طعامه ، وقد حدثنى أستاذ فى طب الباطنة ، وقال لى : لا شىء ممنوع عن مريض السكر ، فهو يتناول كل شىء ، ولكن كميات قليلة ، يعنى أنه يأكل ثمرة واحدة من الفاكهة ، وعددا من ملاعق الأرز ، والمكرونة ، ولكن من ذا الذى يلتزم ويستجيب ، أعرف مريضة سكر ، تناولت ذات ليلة حوالى عشرة كيلو جرامات من المانجو ؛ فأصبحت فى العناية المركزة ، ولما أفاقت بفضل الله تعالى ، وسألت : كيف تسعين إلى قتل نفسك بهذه الطريقة ، قالت : أخذت آكل فيها طوال الليل ، وكانت هدية غالية ، من إنسان غالى ، وكانت نفسي تشتهيها ، وقلت فى نفسى أنا أشبع منها ، وربنا يسترها ، وهذا هو الشاهد ، حيث قالت : أنا أشبع رغبتى وربنا يسترها ، فإن هذا ليس كلاما مستقيما ؛ لأن ربنا عز وجل الذى يستر عباده قال : " وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ " على العموم ، فما بالك بالخصوص ، أى بالمريض الذى هو أشد حاجة إلى الاقتصاد من السليم ؛ لأن الإسراف يضر بالسليم فضلا عن المريض ، والله عز وجل الذى يستر عباده نبههم إلى العواقب ، وحذرهم من السيئة ، وحضهم وحثهم على الحسنة ، فقال عز وجل : "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾" ، فالذى ينظر إلى المآل ، ويعول عليه يرى هذا الطعام الذى يبدو طيبا شهيا كأنه جمر من النار ؛ فلن يأكله وإن ناداه بكل لسان وسال عليه كل لعاب ، وكذا يرى الشراب ، إن الشراب والطعام سوف يكونان من نار ، فمن يقوى على تناول طعام من نار وشراب من نار .

أما الذى لا ينظر إلى المآل فهو يأكل كما يأكل الحيوان ، يبتلع المال الحرام كأنه حلال ، بل إنه قد يجد فيه لذة لا يجدها فى الحلال ؛ لأنه استمرأ الحرام ، واستمر عليه ، وزينه له الشيطان فرآه كما قال الله تعالى : " حسنا" ، وإذا زين الشيطان

سوء العمل ، طعاما حراما أو غيره ، فرآه حسنا ، فلن يزين له الحلال ؛ لأن الحلال مزين بطبعه لمن هدى الله إليه قلبه ، لذلك يجد فى الحرام لذة لا يجدها فى الحلال ، فلن يجد فى الحلال لذة إلا من يتقى الله ، ووطن نفسه عليه ، فإذا بها تشتهيه دون الحرام ،من أجل ذلك رأينا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما يفرغان ما استقر فى جوفيهما من لبن لم يكن من ناقتيهما ، وإنما كان من إبل الصدقة ، ورأينا فى ضوء الحديث الشريف المحفوظ ، من إذا دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى الفاحشة يقول إنى أخاف الله ، وما قال ذلك إلا لأنه ينظر إلى العاقبة ، وهى سيئة ، قال الله عز وجل : " **وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾** "

المآل الحسن

انظر إلى هذا الحديث الشريف الذى رواه مسلم فى صحيحه من طريق أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى الناس "

وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، والصدقة أفضل العبادات على الإطلاق ،،

لو أن كل إنسان تفكر فى مآل هذا العمل وهو التقلب فى جنات وعيون ، وفواكه كثيرة ، لا مقطوعة ولاممنوعة لأقبل على إماطة الأذى عن الطريق ، وما أكثر الأذى فى طريق الناس ، من طوب وحجارة ، وأشواك وزجاج ، ونفايات ، وكل ذلك يؤذى .

لو رفع كل إنسان ما يراه أمام عينيه ، وتحت رجليه ، لرأينا الشوارع نظيفة ، مرآة صافية ، آية بينة عن جد أننا أصحاب حضارة حقيقية ، منبعها الدين الذى

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ورؤية القاذورات فى الشوارع دليل على تخلف وسلوك غير سوى ، ولا شك أن تزكية النفوس من مقاصد البعثة النبوية الشريفة ، لقول الله تعالى : " هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ " .

وتزكية النفوس معناها الارتقاء بها إلى مستوى الإنسانية النبيل الذى نجد فيه فرقا بين الإنسانية والحيوانية ، والحيوان لا يعنيه إن كان يمشى فى طريق نظيف أو غير نظيف ، بل إن الثانى أحب إليه من الأول ؛ إذ إنه فى القاذورات يلعب ، وقد يأكل منها ويشرب ، بخلاف الإنسان زكى النفس الذى قد يمرض إذا رأى مكانا غير نظيف ، وقد يشقى إذا مشى فيه ، فإذا كان لا يعنيه فأى فرق بينه وبين الحيوان .

وهذه المسألة تكشف لنا عن بعد من أبعاد الدين التى قلما وقف عندها الناس ، وهو أن الدين ليس فقط صياما وزكاة وصلاة وحجا ، وتلاوة مجردة عن التدبر ، واستثمار المعانى فى إصلاح الحياة ، فإماطة الأذى عن الطريق من الدين الحنيف بلا جدال ، بل إن مآله على ما رأينا جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهذا مآل عظيم طيب ، يفتح قلوبا مغلقة ، ونفوسا شحيحة نحو الانطلاق إلى إماطة الأذى عن الطريق الذى تفنن الناس فى زيادة الأذى فيه ، من مطبات صناعية وباعة جائلين ، وأرصفة مشغولة بما لا يتيح للمارة أن يمروا فوقها ، ومن سوء المرور وإساءة الخلق بين قائدى السيارات ، ومن مخالفات القواعد المرورية من السير عكس الاتجاه ، والوقوف فى أماكن غير معدة للوقوف فيها ، الأمر الذى يضيق الطريق رغم اتساعه ، ويجلب الغم والهم ، والكرب ،

ويجعل من مجرد المرور بشارع من الشوارع لمدة ساعة رحلة شاقة ، وكأنه مرور فى جبال عاتية ذات معوقات عصيبة ، ومن يتناول هذه القضية يجد أن الناس المأمورين بإماطة الأذى عن الطريق صاروا هم الأذى ، بمعنى أنهم يصنعون الأذى ، وذلك عن طريقين :

الأول : إلقاء الأذى فيه ، أما رأيت أمة من الناس تلقى بأكياس القمامة من نوافذ سياراتهم فى عرض الطريق ، وكذا مناديل الورق المستعملة ، وأعقاب السجائر ، وغير ذلك .

والثانى : اتخاذ الطريق موقفا ، وسوقا ، وملعبا ، ومعروف أن الطريق للمرور ، وليس موقفا للشباب على نواصى الشوارع وغيرها ، وليس سوقا ولا ملعبا ، فللسوق أماكنها الخاصة ، ناهيك بما يكون من أذى من خلال الأصوات العالية والشتائم التى لا تصدر عن ذى خلق ودين ، ولعن الآباء والأمهات ، والتصريح بذكر العورات المغلظة ، وعلو الصوت بلا داع ، وهو كما قال العلماء من الفاحشة ، " قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ" ، قالوا : ورفع الصوت بلا داع من الفواحش ، وقد ثبت فى الصحيح النهى النبوى عن الجلوس فى الطرقات ، فقال عليه الصلاة والسلام : "إياكم والجلوس على الطرقات ، قالوا : ما لنا بد ، إنما هى مجالسنا ؛ قال عليه الصلاة والسلام : فإن أبيتم إلا الجلوس على الطرقات فأعطوا الطريق حقها ، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ ، قال : غض البصر ، وكف الذى ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، ورد السلام على من عرفت ومن لم تعرف"

غياب قيمة المآل

"مآل صلة الرحم وقطعها"

روى السيوطى فى الجامع الكبير عن سليمان بن بريرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "للرحم لسان عند الميزان تقول : يا رب ، من قطعنى فاقطعه ، ومن وصلنى فصله "

مآل حسن لمن وصل رحمه ، ومآل سيء لمن قطعها ، والمآل الحسن يتمثل كما جاء فى هذا الحديث فى وصل الله عز وجل من وصل رحمه ، ويتمثل ذلك فى الحديث الآخر ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : "من سره أن ينسأ له فى رزقه وفى عمره فليصل رحمه" ، ومعنى ذلك أن الله يزيد من رزق واصل الأرحام ، ويزيد فى عمره ، على قولين للعلماء ، أن تكون الزيادة حقيقية بمعنى أن يكون عمره ستين سنة مثلا إذا قطع ، وثمانين إذا وصل ، أو تكون الزيادة حكمية ، بمعنى أن يعيش ستين سنة مباركة

المآل الحسن

"سرعة الخير فى البيوت"

روى السيوطى فى الجامع الكبير من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "للخير أسرع إلى البيت الذى يطعم فيه الطعام من الشفرة فى سنام البعير "

من الأدلة القوية على أن الصدقة أفضل العبادات على الإطلاق مثل هذا الحديث الشريف ، الذى يدل على أن الخير أسرع إلى البيت الذى يطعم فيه الطعام من الشفرة فى سنام البعير ، مآل حسن ، إذا تفكر فيه المرء لا سيما البخيل أقبل على

إطعام الطعام ، الذى هو خير ما فى هذا الدين ، كما روى مسلم فى صحيحه حيث سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن خير ما فى الإسلام فقال : "إطعام الطعام وافشاء السلام " ، ومن صفات الأبرار أنهم يطعمون الطعام على حبه ، قال الله عز وجل : "**وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾** " .

قيمة المآل

"الغضب وآثاره السيئة"

قال : يا رسول الله ، أوصنى ؛ فقال له : لا تغضب ، قال : زدنى ، فقال له : لا تغضب ، قال : زدنى ، فقال : لا تغضب" ثلاث مرات ، وهو منتهى البلاغة فى إيصال المعنى المطلوب إيصاله ، إلى المخاطب وذلك لأن مآل الغضب عنيف ، حيث إن الغاضب تتغير سويته ، ويفسد سلوكه دون أن يشعر ، فإذا به يأتى المنكرات ، وقد يمزق ثوبه ، ويخدش وجهه ، ويلطم خديه ، وذلك كله حرام ، وقد يطلق زوجه ، ويقع هذا الطلاق إذا كان غضبه دون إغلاق ، وقد يظلم ، ومن ثم كان نهى الشريعة الغراء القاضى أن يحكم وهو غضبان ؛لأنه إذا قضى وهو غضبان فلن يكون قضاؤه عادلا ؛ وكيف يكون عادلا ، وقد حمى دمه فى عروقه ، وانتفخت أوداجه ، وتعكر صفاؤه ، ورأى الدنيا ضيقة ، وبالتالى سوف يرى الأدلة أضيق ، وقد رأينا كليم الله موسى عليه السلام يلقى الألواح وفى نسختها هدى ونور ، فلما سكت عنه الغضب أخذها ، ولله در النظم الجليل حيث

قال : "ولما سكت عن موسى الغضب" ، ومعنى ذلك وفى ضوء تلك الاستعارة أن للغضب ثورة وصوتا ، فتأمل كيف تكون تلك الثورة وهذا الصوت ،إن ثورة الغضب ثورة غير منضبطة ، وصوت الغضب صوت وحش كاسر . وانفجار لا يعلم إلا الله مداه ، إنه لا يؤنس بحال من الأحوال ، لأنه صوت غريب يأتى من واد عجيب ، إن حاولت أن تسميه فلن تجد له اسما أوفى إلا "وادى الأهوال" ، نعم فالغضب يأتى بالأهوال ، وأية أهوال تفوق تلك الأهوال التى تتأتى عن الغضب من كسر زجاج يخرق فى الشرايين ، شرايين الغاضب الذى يرى لون الدم فى البداية بلون الورود الحمراء ، حتى يستحيل جروحا قد تودى بحياته أو حياة ولده ، الذى يعاقبه وهو سائر غضبان فإذا به يقتله .

إنها لحظة العمى ، التى قد تأتى على بارد من الغضب كما تأتى على ساخنه، ورب غضب بارد كانت عواقبه أشد ضررا من الغضب الساخن ،فلا يغرنك ما تراه من سكون صاحبه وهدوء أعصابه ، فمثله مثل البركان الذى هو نار حامية ، تغلى تحت التراب ، تراب ناعم بارد ، وسرعان ما ينفر فى لحظة ، فإذا بالحمم الحمراء تبدو فى لحظة بمقدار طرفة عين ، فتملأ الدنيا نارا ودخانا .

وهو تراكمات مختلفة يتراكم بعضها فوق بعض حتى تربو وتنفجر فى لحظة معينة ، فإذا الذى عهدته هادئ النبرة والنفس يهيج كما يهيج الثور ، وينتفض انتفاضة الأسد ، ويقتل ويرتكب الشنائع ، والفضائح ، ومن ثم ترى الناس يتعجبون ، ويضربون كفا بكف ، ويقولون كيف حدث هذا من هذا الرجل الوديع الهادئ المعروف طول عمره بالحلم والوداعة ، كهذا الرجل السائق الذى قتل ركاب الأتوبيس الذى هو قائده ، وشهد له الجميع ، فقالوا إنه رجل وديع مسالم هادئ ، وما كان أحد يظن أن مثله يفعل هذا ، وفى التحقيقات يتبين أنهم كانوا

يسخرون منه ، وينكتون عليه ؛ لأنه من أهل الصعيد ، ومن المؤكد أن هذه السخرية قد تراكمت مع الأيام حتى انفجر البركان فى لحظة أسميها لحظة العمى ، وهى خطيرة ؛ لأن الإنسان إذا عمى فلن يبصر شيئا إلا ما زينه الشيطان له ، ووسوست إليه به نفسه ، أما النظر فى المآل فلا يبدو ولو خافتا أمام عينيه المعصوبتين بعمى النفس ، وإذا عميت النفس عميت لعماها العينان ، فإذا الشر واقع ، وإذا الخير مسافر لأبعد مكان ، وتتجلى بعد ذلك العواقب ، وتجلب الندم ، ولكن بعد فوات الأوان ،،

ومن ثم دعانا رسول الله لى الله عليه وسلم إلى ملاك النفس عند الغضب ، وعد ذلك قوة حقيقية ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : "ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب" ، والصرعة القوى العضلات ، الذى يصارع الناس فيصرعهم ؛ وهو بلا شك قوى ، لكن الأقوى منه هو ذلك الذى يملك جماع نفسه عند الغضب فإذا به يدفع غضبته التى قد يصير بها أقوى من الصرعة ، حيث تنتشر الهرمونات الساحرة فى أعضائه ، فتضيف إليه قوة لم تكن عنده قبل الغضب ، فيبدو كالثور الهائج ، الذى يطيح بكل شىء أمامه ، وكان قبل الغضب لا يستطيع أن يطيح بأى شيء ، ،

وبهذا الحث الذى حثه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتقى الإنسان المسلم من فوضى عارمة إلى ثبات ورسوخ ، وتدبر الأمر ، الذى لا يكون إلا بالنظر إلى العواقب ، فلو نظر من يخيم الغضب فى أفقه إلى العاقبة لملك نفسه ، يحدو به هذا النظر إلى أن يملك نفسه ويرتقى إلى مستوى القوة الحقيقية لا الوهمية التى يزينها له الغضب .

غياب القيمة والمآل

"الآثار السيئة للطلاق"

لو نظر المطلق المتسرع ، أو المطلقة المتسرعة إلى مآل الطلاق لما حدث هذا الطلاق ، الذى كان بوسعهما تفاديه مع إمكانية الحياة ، فقد شرع الطلاق فى الإسلام إذا استحالت الحياة بين الزوجين ، والأصل الأصيل فى الزواج الدوام والاستمرار ، والطلاق عارض ، ولكى يتحقق هذا الأصل فيه على كلا الزوجين أن يعرف الأساس الذى عليه تبنى الحياة الزوجية ،ألا وهو حسن العشرة ، وانظر إلى هذه اللفظة "حسن" ، إنها ليست عشرة وإنما حسن عشرة ، فكيف يتحقق هذا الحسن إلا باجتهاد كل من الزوجين فى رسم معالمه وخطوطه ، وأركانه ونوافله ، فالزوج يشقى ويتعب ويجتهد من أجل تحصيل المال الذى هو قوام الحياة ، وعصبها ، ولا سعادة ولا عشرة ، بل لا حياة بدونه ، ولا يغرنك قول القائل : إن المال ليس مهما عندى ، وأن الكلمة الطيبة خير عندى من مال الدنيا ؛ فهو يقول ذلك من باب المبالغة ، لكن المال مهم جدا لطعامه وشرابه وكسائه ودوائه ، وغير ذلك ، والكلمة الطيبة مطلوبة ، ولكنها لا تغنى عن المال بحال ، وهذا الدين دين المعادلة ، والمعادلة تقتضى الجمع بين المال والكلمة الطيبة ، وهو ساعة يأتى بالمال إلى زوجته عليه أن يقدمه إليها على طبق الحياة ، لا على طبق الموت ، فهو لا يمن عليها ، ولا يؤذيها ، ولا يشعرها بأنها بدونه لا شيء ، ولا يبخل عليها ، ولا يعيرها بسوء حال أصلها إن كان حالهم سيئا ، ،

وهى تجتهد فى إسعاده ، من حيث السمع له والطاعة ، وهكذا يقابل المعروف بمعروف ، والإحسان بالإحسان فينبت البيت دفئا وجمالا ، ويتحقق فيه السكن ،

وتنتشر فيه الرحمة ، وتمضى الحياة مستمرة على هذا الجمال ، لكن بعض النفوس فيها اضطراب وأمراض ، لا ترى الحسن حسنا ، وقد يؤدى اختلاف المشارب ، والثقافات والعادات والتقاليد إلى خلاف ، وقد يكون هنالك اتفاق فى هذا كله ، ويحدث بين الأزواج اختلاف ، فهو وارد ، ولكن المعضلة فى احتوائه ، والاتفاق بعده ،،

وقد قال الله عز وجل : "وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ "

والعظة تكون خفيفة رقيقة موجزة ، وقد مثل العلماء لها بنحو قول الرجل لامرأته : "اتق الله إن لى عليك حقا" ، وكذا الهجر كما قال الله عز وجل :"فى المضاجع" ، والضرب بإجماع العلماء ضرب غير مبرح ، أى لا يكسر لها عظما ، ولا يجرح فيها جلدا ، ولا يغير لونه ، ويتجنب الوجه إذا كان لابد من الضرب ، ولا يبصق فيه ولا يقبحه .

ولعلنا عندما نتدبر هذه الآية الكريمة من سورة النساء نجد أن ربنا عز وجل قال : "واللاتى تخافون نشوزهن" ، أى أن العظة والهجر والضرب إنما يكون قبل حدوث النشوز لا بعد أن يحدث ، وهناك فرق بين أن تفعل هذا مع بوادر النشوز ، أى قبل أن يستفحل الأمر ، فالأمر هين عندئذ ، أما إذا حدث النشوز بالفعل ، فإن ذلك يكون مؤلما عصيبا ، ولعلنا ونحن نتدبر ذلك نذكر طريفة لم يقف عندها المتحدثون وما وجدتها ى كتاب ، وهى قول الله تعالى : "فإن أطعنكم" ، كيف آثر هذا دون أن يقول :"فإن عصينكم" ، مع أن العصيان وارد ،وسر ذلك أن

الواعظ يعظ وهو يؤمل فى طاعة امرأته ، ومعنى ذلك أن يكون رفيقا ، وكذا هجره ، وكذا ضربه بخلاف الذى يضع أمام عينيه العصيان ، فهو يقسو فى كل شيء فى عظته وهجره وضربه .

هذا كله من الدلائل على أن الأصل فى الحياة الزوجية الاستمرار ، وأن الطلاق عارض ، وقبل أن يحدث هذا العارض هنالك سبل إصلاح آخرها بعد ما سبق أن يبعث حكم من أهله وحكم من أهلها : "إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ " فإن رأى الحكمان التفريق كان ، وآخر الدواء الكى ، وقد قال الله تعالى : "وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ "

لكن ذلك كله لا يكون فى الطلاق السريع المبنى على الرغبة فيه دون النظر إلى المآل الذى يتمثل فيما يأتى :

١- الندم على فوات الأوان والندم قاتل

٢- وضياع الأولاد إن كان بين المطلقين أولاد

٣- وضياع المطلقة إن لم يكن لها عائل سوى زوجها ، ولذلك ورد فى الحديث أن التى تطلب الطلاق من زوجها دون ضرر لا تدخل الجنة

٤- وقد يضيع الرجل المطلق كذلك بخسارته زوجته الصالحة ، أو بزواجه بعدها من سيئة يخسر معها كل شيء

والنظر فى هذا المآل يجعل كل منفعل متهور يفكر فى الحال ويعيد النظر فيه .

مآل الصدقة

"لم يبق منها إلا هذه"

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ذبحت ببيته شاة وخرج صلى الله عليه وسلم ثم عاد ، فسأل عنها فقيل له : وزعت كلها إلا هذه القطعة ، فقال عليه الصلاة والسلام : بقيت كلها إلا هذه ، أى أن ما وزع من الشاة على الفقراء والمساكين باق ثوابه وفضله ، قال تعالى : "وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾"

وهذه القطعة الباقية لأهل البيت عما قليل ستزول ، حيث إن الانتفاع بها محدود معروف تشبعك بعض الوقت ، ثم ينتهى أثرها ، وسوف تحتاج إلى مدد غيرها من الزاد يسد جوعتك الجديدة ، فأنت فى الدنيا لا تأكل أكلة لا تجوع بعدها ، ولا تشرب شربة لا تظمأ بعدها ، وإنما تأكل فتشبع ثم تجوع من جديد ، وحين تجوع من جديد تشعر بأنك لم تأكل من قبل شيئا ، وهكذا ، فكل ما تأكله وتشربه طيلة حياتك فان ، وأنت كذلك ماض إلى فناء "كل من عليها فان"

أما الذى يبقى لك بلا فناء فهو ما ادخرت لنفسك فى دار البقاء التى لا يعتريها فناء ، "مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾"

فليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، وما تصدقت فأبقيت ، فالصدقة ماء يروى أى رى ، انها تروى المتصدق فى يوم لا ظل فيه إلا ظل الله ، ولا ماء إلا ماؤه ، ولا رحمة إلا رحمته ، وفى الحديث الذى أخرجه ابن عبد

البر فى التمهيد : "إن المتصدق فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يحكم الله بين العباد"

وفيها من الأدلة ما يدل على أنها أفضل العبادات ، قال الله عز وجل : "مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾"

ويقول سبحانه : "ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾"

وأنت إذا توقفت بتدبر عند عجز هذه الآية أى آخرها "ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" وقرأت قوله تعالى من سورة آل عمران (١٦٩ - ١٧٠) : "وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾" ، وقوله تعالى فى سورة يونس الآية (٦٢) : "أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾" أدركت أن الذين ينفقون أموالهم بمثابة الشهداء ، وأولياء الله الصالحين ، فقد درست فى أبجديات الرياضيات :

أ=ب ، وب = ج ، إذن أ = ج

وكذلك الحال هنا ، فالذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم الشهداء ، وهم أولياء الله الصالحون ، وهم كذلك المتصدقون ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول كما جاء فى الصحيح : "اتقوا النار ولو بشق تمرة" ، ويقول : "الصدقة تطفى

غضب الرب" ، والأدلة أكثر من ان تحصى على أن الصدقة أفضل العبادات ، فهى بمثابة الماء الذى يروى . وأكرم بها من ماء يروى فى يوم عبوس عقيم ، فإن قلت : لكن الذى نشربه يروى كذلك فى الدنيا ، والجواب أن هذا صحيح ولكن ما قيمة رى بعده ظمأ طويل ، وما قيمة وجبة هائلة عظيمة بعدها جوع الأبد ، إن الإسلام حريص على رى المسلم فى الدنيا والآخرة ، قال الله عز وجل : " وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾" ، وأعقل الناس من تراه حريصا على يومه وغده معا ، وأخبل الناس وأغباهم من يقول : أحينى اليوم وأمتنى غدا ، لأنه بمثابة الدابة التى لا يعنيها إلا أن تهجم على ما تراه من طعامها وإن كانت سوف تذبح بعد .

خير من الدنيا وما فيها

روى مسلم فى صحيحه من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها " ن وورد فى الحديث أن أناسا كثيرين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج يوم تبوك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، وسبيل الله أوله الجهاد فى سبيل الله (القتال) ، وآخره إماطة الأذى عن الطريق ، فهو واسه وإن ضيقه بعضهم وأوقفه على القتال فقط ، والدليل على اتساعه أن شابا خرج ، فرآه الصحابة وقد أعجبتهم قوته وفتوته ونشاطه ، وقالوا : لو كان خروجه فى سبيل الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : لو خرج على أبوين كبيرين فهو فى سبيل الله ، ولو خرج على أرملة فهو فى سبيل الله ، ولو خرج على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، أى يعفها عن السؤال ، سؤال الناس أعطوه أو منعوه ،،

ومعنى ذلك أن سبيل الله عز وجل واسع ، والدين واسع ، وقد قال تعالى : "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ "

وقد جاء أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمعه ، وركب ناقته وانطلق ، فقال : اللهم ارحمنى وحمدا ولا ترحم معنا أحدا ، فقال له عليه الصلاة والسلام : لقد حجرت واسعا ، وفى رواية ذكرها السيوطى فى الجامع الكبير : أهو أضل أو بعيره ؟

فلا ينبغى لامرئ أن يضيق ما وسعه الله عز وجل ، وكذلك سبيل الله عز وجل يتسع لكل معنى طيب يقام ، ولكل عمل من الأعمال ينفع الناس ، من المصالح والمرافق العامة ، والذين يعملون العمل الصالح من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها من الأعمال النافعة من سبيل الله عز وجل ، ولا شك أن غدوة (اول النهار) أو روحة (آخر النهار) خير من الدنيا وما فيها ، ولا خير من الدنيا وما فيها إلا الجنة ، فموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، تصور أن خطا فى الصباح أو فى المساء فى سبيل الله مألها جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان من الله أكبر ، وقد تكون هذه الخطا فى الطريق إلى العمل الجاد ، الذى يكرم المرء به نفسه ، ويجلب من ورائه الخير لولده وزوجه وأسرته ، إنه فى سبيل الله ، وليست خطا إلى عمل فيه ينام أو يكسل أو يفسد أو يسرق ، وقد تكون الخطا من أجل زيارة مريض ، وقد جاء فى الحديث الذى أخرجه ابن عبد البر رحمه الله فى التمهيد أن زائر المريض يمشى فى رحمة الله ، فإذا وصل عنده فقد استقر فيها ، ويكفى دليلا على شرف هذه الزيارة أن الله تعالى يقول للعبد : "كنت مريضا فلم تزرنى ، فيقول : يا ربا

كيف سبحانك أنت لا تمرض ، فيقول الله كان عبدى فلان مريضا فلم تزره ، أما علمت أنك لو زرته لوجدتنى عنده"

بالله وقد ثبتت صحة الحديث ، هل تكون زيارة المريض إلا عملا فى سبيل الله !

وقد تكون هذه الخطا من أجل زيارة أخ فى الله ، وقد روى أن رجلا زار أخا له فى الله فى قرية بعيدة ، فأنزل الله إليه ملكا على هيئة رجل ، سأله عن سبب زيارته فقال : إنى أحبه فى الله ، فقال له : وأنا ملك أرسلنى الله إليك لأبشرك بأن الله غفر لك لحبك إياه فيه .

أليس ذلك فى سبيل الله عز وجل ؟ ومعنى الزيارة فى الله والحب فيه أنها خالصة لوجه الله ، ليست لغرض دنيوى من حيث أصل الانطلاق إلى هذا المزور ، ولا بأس أن يتحقق هذا الغرض ثانيا ، كما قال الشاطبى فى الموافقات فى الأغراض الأساسية والأغراض الثانوية التى لا تبطل تلك الأغراض الأساسية ، كالرجل يذهب إلى المسجد أساسا من أجل إقامة الصلاة فى جماعة ، ولا بأس أن يستأنس بإخوانه المصلين ، فقصد المسجد للصلاة غرض أصلى ، والاستئناس بالإخوان غرض ثانوى.

وقد تكون هذه الخطا فى صلة رحم ، وصلة الأرحام من عزم الأمور ، وقد جاء فى الصحيح أن من سره أن ينسأ له فى عمره ، وفى رزقه فليصل رحمه ، وقد تكون فى إصلاح بين الناس ، قال الله تعالى : " **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ** "

فلو غاب المآل الحسن لما مشى أحد فى طاعة كما هو كائن عند كثير من الناس .

قيمة المآل

"التطلع إلى الظاهر"

جاء فى الحديث الشريف : "أن امرأة من بنى إسرائيل كانت ترضع ابنا لها فمر بها رجل ركب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب ، فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه ، ثم مر بأمه امرأة ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها وقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت له لم ذاك ؟ ، فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون : (سرقت ، زنت) ، ولم تفعل."

إنه النظر إلى المآل لا إلى الحال ، فالحال مغر فى الرجل الذى رأته الأم وجيه زمانه ، وفائقا أقرانه ، أرادت أن يكون ابنها مثله وهى لا تعلم أنه جبار ، فهل تحب أن تربى ابنها ليصير جبارا، والأمة التى مر بها الناس ويتهمونها بالسرقة والزنا ، وهى لم تسرق ولم تزنى ، أى أنها بريئة من كل تهمة يتهمها الناس بها ، فدعت الله عز وجل ألا يكون مثلها فيما تراه فى الظاهر ، لكنه سأل الله أن يكون مثلها فى الباطن بأن يحيا بريئا من كل تهمة وفاحشة .

إن مآل التطلع إلى الظاهر بهذه النتائج من السوء بمكان ، وهو مع الأسف شائع عند كثير من الناس الذين يمرون بقصور ، وجنات ونعم ، ويتمنون أن تكون لهم ، أو أن يكونوا مثل أصحابها ،،

وأذكر فى هذا السياق تلك القصة الحقيقية ، حيث كان رجل من الإقطاعيين لديه مئات الأفدنة الزراعية ، وفى وسطها بيت واسع جميل ، فيه خدم وحشم وخيرات ، فضلا عن قصر كبير فى العاصمة (القاهرة) ، وكان الفلاحون

يعملون فى حقوله ، وذات صيف وفى موسم جمع القطن مر مع ناظر زراعته ، وهم فى فترة الراحة من أجل تناول غذائهم الذى كان من خبز جاف ، ومش ، ولفت مخلل ، وكانوا يأكلون ذلك فى نهم وكأنهم يأكلون الرومى والمنادى والمحانز ، وكان الواحد منهم ينام على بطنه ويشرب من ماء الترعة الجارى ، فنظر إليهم صاحب هذا الملك الواسع ، وهمس فى أذن ناظر زراعته وقال له : أتدرى ما الذى جال فى خاطرى الآن ، وأتمناه ، قال : تفضل يا سيدى ! ، فقال : أتمنى أن ينزع منى كل ما أملك على أن آكل ما يأكلون وأشرب بهذه الطريقة التى بها يشربون .

كان الرجل مريضا بأمراض شتى تمنعه أن يأكل مثل هذا الطعام ، فضلا عن نشأته البعيدة كل البعد عن تناول مثله ، وهو عاجز عن النوم على بطنه بهذه الطريقة ، فضلا عن عجزه عن الشرب من ماء الترعة ، ولا شك أن معظم هؤلاء كان يتمنى أن يكون مثل هذا الرجل الذى يملك تلك المساحات الشاسعة من الأراضى ، ويركب سيارة فخمة ، لها قائد ، كل معجمه من الكلمات يتلخص فى السمع والطاعة ، ويسكن القصور ، ويحظى بخدم وحشم وينام على وثير الفراش ، ويرتدى الناعم من الثياب ، وإذا مشى خطوات على قدميه فى الحر مشى إلى جنبه من يحمل له مظلة (شمسية) حتى لا تؤذى الشمس رأسه ، وإذا أشار بإصبعه وجد غير واحد يتسابقون إليه ، ويقولون : لبيك وسعديك .

ما فكر أحدهم فى أمراض يعانيها فضلا عن ظلمه إن كان ظالما ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، وما فكر أحد فى سوء عاقبته ،،

وقد شاهدنا رؤساء دول وقد انتقلوا من قصور الرئاسة إلى أقفاص الاتهام ، ومنهم من أعدم شنقا ، هذا مآل لو تفكر فيه الذين يتمنون أن يكونوا أمثالهم للفظوا هذا التمنى ، ولو تفكر هؤلاء الرؤساء فى سوء المآل لما ظلموا الرعية ، ولما ركبوا فوق أعناق الفقراء ، وجاملوا طائفة من الأغنياء على حسابهم ،،

وانظر إلى الذين قالوا : "يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم" ، وقال الذين أوتوا العلم : "ويلكم ثواب الله خير" ، فلما خسف الله به وبداره الأرض قالوا : "ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون"

من ذا الذى يفكر فى مآل قارون ، ويود أن يكون مثله إلا الغافل الغبى ؟

كلمة لو مزجت بماء البحر

روى من حديث عائشة رضى الله عنها فى الترمذى وغيره أنها قالت : "يا رسول الله إن صفية امرأة ، هكذا ، تعنى قصيرة ، فقال عليه والصلاة والسلام : لقد مزجت بكلمة لو مزج بها ماء البحر لمزج"

وما أظن أنها قالت قصيرة فى هذه الرواية ، ولكنها قالت : هكذا ، وأشارت بيدها ، فدل قولها "هكذا" مع هذه الإشارة باليد على قصدها ، فعد ذلك مزجا كمزج البحر الطويل العريض بما يعكره ، هذا مآل غائب ، لو أن كل ساخر مستهزئ تفكر فيه ، لأمسك لسانه ، ويده وفمه ، وقد قال عز وجل :" وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ " ، تأمل كلمة " كل" الدالة على العموم ، دون استثناء ، وما أكثر الذين يتخذون من إخوانهم من الناس مواطن سخرية ، وما ذكره العلماء فى هذا الحديث وما ذكره أهل السير أن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها كانت بالفعل قصيرة لكن هذا لا يجوز ، وتعافه النفس التى تنظر إلى المآل .

كيف تفكر فى مزج ماء البحر بالسوء ، وهل البدن الضئيل الضيق الضعيف يقوى على تلك العكارة التى تعكر البحر الواسع الطويل العريض ، إن الذى يعكر البحر لو تصورنا ذلك إنما يسود البدن الضئيل ، ويتراكم بعضه فوق بعض حتى يصير محشوا به ، فلا فراغ ، ولا تنفس ، فكيف يعيش ويتحرك وبداخله كل هذا السواد الذى صار مثل الجبس والأسمنت فى عمق الجدار الصلب !

وإن كان ذلك كذلك فما بالنا بالذين يقولون أكثر من ذلك بكثير ، فإن وابلا من الكلمات السيئة التى تذم الناس وتسخر منهم ، ومن آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم ، وبلادهم .

وقد جاء فى الصحيح أن أبا ذر رضى الله عنه عير رجلا بأمه فقال له : يا ابن السوداء ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك امرؤ فيك جاهلية ، وقد عرف عنه رضى الله عنه أنه كان يلبس خادمه مثلما يلبس ، والشاهد فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : إنك امرؤ فيك جاهلية ، من أجل كلمة قالها هى : يا ابن السوداء ، فماذا يقال فيمن يقول لأخيه : يا ابن الزرقاء والعوراء والعمياء والخادمة والسائلة ، والخاسرة ، والضائعة ، ناهيك بالألفاظ القبيحة الأخرى وهي معروفة مما يكون أثرها إقامة حد القذف ، إنه ليس فيه جاهلية ، وإنما هو جاهلى فى جاهلية من رأسه إلى قدميه ، فمتى يتخلص من هذا العبء الثقيل ، والهم الكبير ، الذى يخوض فيه ، وهو يشعر مع الأسف والأسى بأنه ظريف شريف خفيف الدم والظل ، وأنه ابن نكتة ، وكذا .

إن مآل كلمة لا يلقى لها المرء بالا مثل كلمة " هكذا " مع الإشارة باليد إلى القصر أن يمزج بها ما لو مزج بها البحر لمزج ، وقد قال الله عز وجل : "

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝"

وتأمل قول الله ربنا : "بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان" لترى أن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب من الفسوق ، وأن من الإيمان أن يحترم الناس بعضهم بعضا ، وأن ينادى المرء أخاه بأحب الأسماء إليه ن وهذا من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن خالف هذا الهدى وقد آمن فقد اكتسب لقب "فاسق" بعد أن كان يتحلى بلقب " مؤمن" بسبب كلمة هزل قالها ساخرا من إنسان قد يكون خيرا منه عند الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : " إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ " .

والتقوى محلها القلب ، ولا يطلع على ما فى القلب إلا الله ، وقد روى البخارى فى صحيحه قول النبى صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى لم يأمرنى أن أفتش عما فى قلوب الناس" ، وبسبب لقب سيء يطلقه على الإنسان الذى لا يحبه ، فيعكر به نفسه وصفوه ، ويكدره ، وقد يؤدى ذلك إلى خطب جلل ، وعراك بين الناس وجراح .

إن تهذيب اللسان من الحرص على سلامة الجنان ، وقصد الإحسان ، وقد ورد فى الحديث أن الرجل يلقى بالكلمة لا يلقى لها بالا فيهوى بها فى نار جهنم ، وذلك من السوء ، وقد يلقى بالكلمة لا يلقى لها بالا فيدخل بسببها الجنة ، وذلك من الحسن الذى نسأل الله أن يهدينا إياه .

مآل المبتلى بشىء
الكَلِّ على مولاه

بداية أقول إن الكل الذى على مولاه لا يروى فى الدنيا وإنما يروى الصبر عليه فى الآخرة بلا شك ، ذلك المعوق : أى من كان غير قادر على الكسب لعلة فى بدنه أوفى عقله ، فهو كل على مولاه إذا نظر إليه بعين الحال وجده لا يروى ،لأنه لا يفيد منه شيئا ولكن إذا نظر إليه بعين المآل وجده الرى كله ،لأنه صبر عليه وآواه ،وأطعمه وسقاه ،وداواه وكساه ،فجزاؤه عند الله عظيم ، وثوابه عند الله تعالى كبير.

وفى زمننا كثير من هؤلاء، وإن كانوا غير ذوى عاهات ،أى أنهم شباب على صحة وفتوة ،ونضرة فى شكل ،وقوة فى حركة ،لكنهم عاطلون ،فمثلهم مثل ذوى العاهات ،أو نحن الذين أنزلناهم منزلة ذوى العاهات كما أنزلنا المرأة المتعلمة الواعية منزلة الجاهلة الغبية ،حيث حرمنا عليها العمل ،وهى قادرة عليه ،بل على الإبداع فيه والمجتمع فى حاجة إلى عقلها وفكرها ،كلنا نظرنا إليها باعتبارها عورة ،ومثيرة للشهوة ،وعليها أن تقعد فى البيت بعيدة عن مواطن الفتن ،وحكمنا ظلما على صوتها بأنه عورة ،فجعلناها كما جعلنا الشباب القوى بمثابة الماء الذى لا يروى ،والأصل أن عقل المرأة ووجدانها ماء يروى إذا علمناها وثقفناها على قواعد وأصول ،ولكنه الميراث البغيض ،والفكر السيء الذى قضينا به على ثروات عظيمة ،فافتقرنا ونحن فى الأصل أغنياء ،وألقينا بأيدينا فى الدنية ،ونحن فى الأصل أعزة ،"وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ" .

والكل على مولاه يقول الله تعالى فيه : "وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ"" فهو غير نافع فى كل اتجاه ،لأنه عاجز ،ضعيف ،ومن فضل الله تعالى عليه أن له مولى يرعاه ،وهذا المولى قد يتوهم أنه مصاب به مبتلى ،وأنه بمثابة الماء الذى لا يروى ،إذا نظر إلى غيره الذى هو مولى غلام نابه سليم الأعضاء ،قوى العضلات ،مفتول السواعد ،صحيح العقل ،يصنع من الفسيخ شربات ،وكلما وجهه مولاه ،أو توجه هو من تلقاء نفسه عاد بالخير الكثير ،فهو يقول :يا ليتنى مثل فلان ،عندى ولد مثله فى قوة بدنه ،ورجاحة عقله ،وصحة فكره ،يتاجر فى التراب فاذا به ذهب بين يديه ،ويسافر فى أرجاء الأرض ويعود رابحا غير خاسر ،انظروا كم حصل من مال ،وكم بنى من عقار ،وكم اشترى من أرض ،وكم ....،وكم !

وقد روى من حديث أنس رضى الله عنه أن أخوين كانا بالمدينة المنورة ،كان أحدهما عاجزا عن الكسب ويحضر مجالس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ و كان الآخر يعمل ويكسب ،فغاظ العاجز أخاه الكاسب ، فشكاه إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : اصبرعليه فلعلك ترزق من أجله ،فقال : يا رسول الله ، لا أغضبه أبدا .

ولوتفكر مولى العاجز فى أنه قد يرزق من أجل ذلك العاجز لما نظر إلى الآخر ،الذى عنده القوى الذى يأتى بخير كلما ذهب ، ويأتى بالكسب من أى مكان ، فإن الخير فيمن عنده بلا شك ، من حيث كونه سببا فى هذا الرزق الذى يظنه من كسب يده ، ونتاج فكره ، وأنه لو لم يكن من عنده عاجزا لازداد رزقه ، وتضاعف محصوله ، لأنه سوف يجمع كذا ومن عنده لو كان قويا سوف يجمع كذا ، وإضافة كذا إلى كذا ينتج عنه الكثير ،،

وهذا ليس صحيحا ، إنما الصحيح أنه رزق رزقا قد يكون أعظم وأكثر من مجموع ما يحصل عليه جماعة من الأصحاء الأقوياء ، نعم ، إنه بمثابة الماء الذى لا يروى فى الظاهر وهو فى الحقيقة يروى ، لكنا لا نبصر كثيرا من الأبعاد لقصر النظر الذى ابتليت به بصائرنا ،،

ومن دعائى : "اللهم هب لنا من بصائرنا أبصارا تطلع على آيات قدرتك ، وهب لنا من أبصارنا بصائر تطمئن إلى حكمتك "

والله ـ عزوجل ـ هو الحكيم ، والحكمة معناها وضع الشىء فى موضعه الصحيح ، وهو يبارك ويرزق من ابتلاه بمثل هذا القعيد الذى لا يأتى بخير ، متى صبر عليه ولم يضجر ، وحمله وهو سعيد به ، لأن رزقه على الله ، وهو مأجور عليه بلا شك ،وعليه أن يقول إننا بك مرويون ونحن بك مأجورون.

القيمة الحقيقية
ولاينبئك مثل خبير

يقول الله عز وجل ـ فى آيتى فاطر (١٣ـ ١٤) :"**يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤**"

ومعنى ذلك أن الله ربنا هو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ،وهو الذى سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، وهو الذى له الملك ، أما ما يعبد من دونه من أصنام وغيرها فلا يسمعون دعاء من يعبدونهم ولو

سمعوا ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكونون برءاء منهم ، وهذا لا يتأتى إلا من خبير عليم

فلو قال قائل لهؤلاء الذين عبدوا من دون الله أوثانا مثل هذا الكلام فإما أن يكون خبيرا به ، وإما ألا يكون ، فإن كان خبيرا كان لقوله قيمة ، ومقتضى تلك القيمة أن يتجنب الإنسان ما لا ينفعه ، ويعبد من ينفعه .

وقس على ذلك أمورا مهمة فى حياتنا ، فلطالما كان كلام الخبير مستبعدا ، وكلام غيره مقربا متبعا ، وهذا الذى جعل الناس فى تأخر وتخلف ؛ فلا شىء أضر على الفرد والأمة من اعتزال الحق واتباع الباطل .

تحدث طه حسين عن شعر حافظ إبراهيم فى مرحلة متقدمة منه فى كتابه (حافظ وشوقى) فقال إن شعره أشبه بشعر طالب (تلميذ) يضع شعر الأقدمين أمامه ، ويحاكيه دون أن تظهر فيه موهبته ، ولا إبداع له فيه...... إلى آخره،،

أقول هذا الكلام ولكن من زاوية أخرى ، وهى زاوية المدح والثناء من الذين يجهلون معنى الشعر ، وأوزانه وقوافيه ، فلا شك أن ذلك يطرب الطالب ، ويسعده ، بخلاف ما لوعرض شعره هذا على خبير ، ينبهه إلى كسره ، وضعفه ، وينصح له بأن يقرأ كثيرا ، ويتزود ، ولا أقول كما قال الدكتور طه حسين : إن الشعراء لا يثقفون أنفسهم ولا يعملون إلا خيالهم ، فهم يظنون أنهم أصحاب خيال وأنهم فوق الناس ما داموا يرون أنفسهم بسبب هذا الخيال يحلقون فى السماء .

وإنما أقول :لابد أن ينصح الخبير الأستاذ فى الشعر مثل هذا الطالب المبتدىء بأن يقرأ ويطالع ، ويثقف نفسه ، ويتعلم الأوزان والقوافى ، وهو طبعا يرى نفسه

كما قال طه حسين فوق الخبير الذى ليس شرطا فيه أن يكون مبدعا مثله ،ومن ثم فهو يعزف عن نصحه فى الأعم الأغلب ، ويميل إلى الذين يصفقون له ، ويقولون : أنت أشعر من المتنبى ، ومن حافظ ، ومن شوقى ، وهؤلاء كما يقول العوام يدلونه على شر أعماله .

ولعلك معى أن كثيرا من الناس لا يعجبهم نصح الطبيب ولا وصفاته العلمية ، ولا يقبلون على التداوى الصحيح ، ويعجبهم كلام دجال باسم الدين ، وكلام امرأة جاهلة تقرأ الفنجان ،وتقول لهم :إن الفنجان لا يكذب ،وهنا خطان انظروا :هذا خط الصحة وهى (بمب) باذن الله ، وهذا خط العمر الطويل ، فصاحب الفنجان معافى فى بدنه وهو طويل العمر ، فما الداعى إلى الطب والدواء ، والمر، والمرارة والتكاليف وعندئذ تنحنى الجباه عن رضا ، وموافقة ، وانصياع وتكون النتيجة معروفة ، وهى زيادة فى الألم ،وهلاك محقق ، وحين يحدث ذلك يتردد على الشفاه قوله ـ عز وجل ـ : "**قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا**" ، وعبارات منها : (كل شيء نصيب ، وربنا تعالى لم يرد ، ولا أحد يموت ناقص عمر) إلى آخر ذلك .

ومثل ذلك يموت فى حالات كثيرة تحت عنوان يجمعها لا سند له ولا أساس من صحة منقول أو معقول ، وهذا العنوان هو (مس الجن والعفاريت) ، حيث يرى كثير من الناس أن الجن يسكن جسد الإنسان ، ولا خروج له منه إلا أن يخرجه من يعالج بالقرآن ، يقرأ ويضرب الممسوس ضربا شديدا ، أدى ببعض الحالات إلى الموت ، ويدعى الجاهل الذى يضرب أنه يضرب الجن لا المرأة والرجل المصابين ، والناس يصدقون قوله ، وهو كاذب .

وقد نشرت الصحف السيارة أحداث وفيات كثيرة ، من جراء هذا العبث بالدين والدنيا.

والعلماء يقولون : إن الشيطان وقبيله لا يملكون للإنسان إلا الوسوسة ، " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ " وبعض الذين أسند إليهم أمر الدعوة يركبون تيار الجاهلين ، ويوافقونهم على مزاعمهم الباطلة ؛ لأنهم يربحون من وراء ذلك الكثير ، فنراهم يقومون بتلك الأعمال المريبة ، لأن الناس لا تجدى معهم النصيحة ، ولا يقبلون العلم الصحيح ، وفى الوقت نفسه يقول الناس : إن هؤلاء علماء الدين ، وهم يقومون بذلك فلابد أن يكون صحيحا ،،

وبعض الناس يقولون : لقد رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا ، فالشخص الذى يدخله الجن يتغير لونه وصوته ، ويتحدث بالسريانية ، ويصبح صوته فى بعض الأوقات مثل صوت الطفل مع أنه كبير ، وجميع ذلك وارد لكن لأن هذا مرض نفسى ، واعتقاد فى وهم ، أو عمد وإصرار على تغيير الصوت حتى يرحمه من لا يرحمه من أهله وأقاربه ، فلطالما قال ارحمونى ، ولم يستجيبوا له ، فلم يجد أمامه من سبيل إلا هذا الادعاء ، حتى يرحموه ؛ لأنهم يخافون الجن والعفاريت ، ويعملون لهم ألف حساب ، ومن ثم يتمرغ فى التراب ، ويصرخ ، ويقطع وجهه وشعره حتى يذهبوا به إلى دجال ، يقول لهم : إن عليه جنا من جنوب الصومال ، وله مطالب كذا وكذا ، وهذا من العمى والإسلام يعالج العمى .

قيمة العمل

يستمد العمل قيمته من أن الله عز وجل أمرنا به ، حيث قال سبحانه : " وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ

ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ " ، وكذلك أمرنا به رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال : "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده "

والله عز وجل أعلم بما يصلح أحوال عباده ، قال جل فى علاه : " أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ" ، والنبى صلى الله عليه وسلم عزيز عليه ما عنتنا ، حريص علينا ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ولا عنت كعنت البطالة ، وما يترتب عليها من سوء المصير ، وعقبى المآل ، فهى رذيلة ، وتؤدى فى الأغلب إلى فساد كبير ، وفى الأرض متسع لكل يد خلقها الله عز وجل ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأحد ولاته : يا هذا إن الله خلق هذه الأيدى لتعمل ، فإن لم تجد فى الطاعة عملا ، التمست فى المعاصى أعمالا .

ولا عنت كعنت التطفل والعيش على حساب الغير لمن كان ذا نفس سوية ، وإحساس حى بالحياة ، ومن ثم كان العمل وقاية من كل رذيلة ، ووقاية لكل سوء يتأتى عن طريق السؤال ، وفى الحديث : "لأن يأخذ أحدكم حبلا على عاتقه فيحتطب ، ويبيع خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"

وقد جاء فى الصحيح أن أنصاريا جاء يسأله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما فى بيته ، وكان شيئا زهيدا ، فأمره بإحضاره ، فباعه له بمزاد علنى ، حيث قال : من يشترى هذين ؟ فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : من يزيد على درهم ، فقال آخر : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاها الأنصارى ، وقال له : اشترى بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما ، وائتنى به ، ففعل وأتاه بالقدوم ، فوضع فيه صلى

الله عليه وسلم عودا بيده ، وقال له : اذهب واحتطب وبع ، ولا اربنك خمسة عشر يوما ، فلما انقضت المدة جاءه ، وقد ربح عشرة دراهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة ، إن المسالة لا تصلح إلا لذى فقر متقع (شديد) ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع (دية شديدة) "

والمجتهدون المحققون من العلماء على هذا الضياء من هدى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، أى على أن سؤال الناس لا يجوز إلا عند الضرورة التى ذكرها صلى الله عليه وسلم من الفقر الشديد ، والدين الكبير الذى لا يستطيع سداده ، والدية الكبيرة التى لا يقوى عليها قاتل الخطأ ، ومن العلماء من ذهب إلى أن السؤال حرام ، فلا يجوز عند ضرورة ولا عند غيرها ، لما فيه من ضعف اليقين بالله إلى آخر ذلك من البحث الفقهى الذى يفضى فى النهاية إلى أن العمل هو العمدة ، والمعول عليه ، وهو الأساس ، ولله در القائل من قديم :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو لم يبن ملك على جهل وإقلال

والعمل فى ذاته قيمة لا تتجلى إلا بمقتضاها ، وهو ثمرة هذا العمل ، التى يتلذذ بها العامل قبل غيره ، وينتفع بها من حوله من أسرته ، ومجتمعه ، وأمته ، وهو الذى يعلى قيمة المرء ، ويثبت بصدق حقيقة وجوده فى هذه الحياة ، إذ البطالة ركود وسكون وهما من صفات الموتى لا الأحياء .

ولن نتذوق تلك الثمرة إلا بإتقان ما نعمل ، ففى الحديث : " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، فقد يبذل العامل جهدا كبيرا فى عمل غير متقن ، ولا تكون له ثمرة ، ومن أجل الإتقان يجب أن يكون العامل على علم بما يعمل ، وأن يتابع سبل تطوره ،وأن يكون على يقين من وجوب الإتقان شرعا وعقلا ، حتى يكون لعمله قيمة.

القيمة الوهمية

ثمة ورقة على يساره ، تحت زجاج مكتبه ، وضعها قدرا ، أو وضعت له ، قرأها فى موقف عصيب ، حيث أطلقت عليه زوجته لقبا لا يليق بمكانته وقيمته التى اكتسبها منذ سنوات طويلة هى كل عمره ،

كتب صحفى هذه الورقة تحت عنوان شرف صحبته ، أحس بأن الأولى بالتعبير عن الشرف صاحبته الملازمة له ليل نهار ، أو معظم الوقت تقريبا ، أول شيء استرعى انتباهه أنه من الجائز أن يكون كما قالت امرأته ، فهى أدرى الناس بحقيقته ، فالناس يرونه فى أكمل أحواله ، وهى تراه فى كل حالة ، ومن الجائز أن يكون هذا الصحفى من المغترين به ، وبما لديه من ثروات لها قيمة فعلا ، لكن صاحبنا ليس كذلك فى الواقع ، وهو رجل يعلم أن المنافقين كانوا يصلون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجعوا إلى إخوانهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزءون ، والله عز وجل قال ذلك فى حديثه عنهم فى صدر سورة البقرة ، فقال سبحانه : " **وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾** "

فما الذى يمنع أن يكون هو كذلك كالمنافق الذى ظاهره جميل ، وباطنه القبح بعينه ! هذه أول بادرة طافت برأس الرجل الذى صعقه ذلك اللقب ،،

ثم تفكر من جديد فى عكس ذلك إذ قد يكون كما وصفه الصحفى من العلماء النابغين المجددين المحترمين الذين يشار إليهم بالبنان ، وله أثره فى كل مكان ، وأن صحبته فى رحلة علمية على مدى ليال ثلاث شرف حصل للصحفى كان يرجوه ، بل كان يحلم به ، ولكنه على المعهود عند الناس ، لا قيمة له عند أهله ،

ومن ثم قال العوام : (زمار القوم لا يطرب) ، وفى قرية من قرى مصر قارى للقرآن الكريم ذو صوت ندى حسن ، يأتى إليه الناس من كل مكان اذا علموا أنه سوف يحيي ليلة من الليالى فى مكان ما ، ومع ذلك فأهل قريته لا يقدرون قيمته ، ولا يرفعون قدره كما يفعل الأجانب الذين ليسوا من قريته .. وهكذا ، حتى الأنبياء ، "وقال إنى مهاجر إلى ربى" ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض الإسلام بمكة ، وهو بين أهله وأعمامه وأرحامه فأوذى حتى هاجر إلى المدينة المنورة ، وهنالك صار للإسلام دولة أساسها الأنصار الذين بايعوه ونصروه وآووا أصحابه الذين هاجروا معه ، وقد قال عز وجل فى امرأة نوح وامراة لوط : " كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا" ، ولا شك أن نوحا ولوطا عليهما السلام لم يكن فيهما شيء من النفاق والعياذ بالله ، بل كان ظاهرهما وباطنهما على أكمل ما يكون خلقا ونبلا وخيرا ، وقد روى البخارى فى صحيحه قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى" ، وقد قال خليل الله غبراهيم عليه السلام لأبيه : "يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾" ، وكانت العاقبة أن قال له : "لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾"

كان الأولى أن يكون أهل الأنبياء أول من ينتفع بهداهم ، هذا هو الذى عزى الرجل فى موقفه ، لكنه سرعان ما تفكر فى هذا الموضوع المهم " القيمة الوهمية " ، فهناك كثير من الناس لهم قيمة ولكنها وهمية ، فمن أين جاءت تلك القيمة وما سبب الحكم عليها ، لا شك أن هذا موضوع مهم له حديث طويل سوف يأتى إن شاء الله ، لأن القيمة الوهمية من العمى والإسلام يعالج العمى .

القيمة الوهمية

أول ما يتبادر إلى الذهن فى قضية القيمة الوهمية أنها قيمة مبنية على توهم ، وضلال ، لأنها ليست حقيقية ، والله عز وجل يقول : " فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ " .

ظن رجل أنه ليس له مثيل فى الرجال بعد وفاة زوجته التى أحبته حبا جما ، وبسبب هذا الحب الكبير آمن واعتقد أنه فعلا ليس له أخ ، وتركت له – رحمها الله – بنتا جميلة حسناء ، كانت فى حاجة إلى حضن أم ، ودفء أمومة ، ونصح له جماعة من الناس أن يتزوج من أجل ابنته ، لا من أجله ، فأخذ يقول : ومن فى النساء من تكون أهلا للزواج منى ، حدث نفسه بذلك ، وكبر هذا الحديث عنده حتى أصر أحد أعمامه على أن يخطب له ابنة أخيه المرحوم ، أى ابنة عمه ، وقال : هذه أنسب زوجة لك فهى منك ، من لحمك ودمك ، وستكون أرعى لابنتك وأحن ، وخادمة لك بلا شك ، ورأى أن ذلك من الجائز أن يكون ، وأنه سوف يبر بها ويجبر خاطرها ، فهى دون الأربعين بقليل ، ولما تظل آنسة لم تتزوج ، وبلغة الناس : فاتها القطار ، فقال وهو يضاحك عمه : نعم أوافق ، على الأقل أكسب فيها ثوابا وأفك نحسها .

وجاءت الليلة الموعودة يوم الخميس ، ليلة الجمعة ، بعد أن صلى مع عمه العشاء ، انطلق الرجلان إلى بيت العروس ، واستقبلا بما يستقبل به الأهل والأرحام كالعادة ، من تبسط فى الكلام ، وترحيب ، وتقديم واجب الضيافة ، على ما قسم ، فليس فى الدار غريب من الضيوف ، وبمجرد أن قال عمه : وحدوا الله وسمعونا الفاتحة للنبى ، لقد جئنا الليلة من أجل خطبة فلانة لفلان ابن عمها ، حتى تركت الفتاة المجلس ، وصاحت خارج الحجرة (رفعت بالصوت)

، وقالت : والله لو وافقتم لصببت على نفسي الكيروسين .... وأحرقت نفسي ..... أنا ..... أنا .... أصوم أصوم وأفطر على هذا ، والله لأن ألقى الله عز وجل على حالى هذا بدون زواج ، أحب إلي أن ألقاه وأنا امرأته ، ابن عمى على عينى وراسى ، لا أحد يختار أباه ولا أمه ولا عمه ولا خاله ، ولا ابن عمه ولا ابن خاله ، لكن زواج ..... حد الله ،،

وصعق الرجل وانصرف كالمجنون ، وهو يقول : سلامتك الف مليون سلامة من الحريق ، حقك علي ... ومضى إلى بيته ، وغلق بابه عليه .

وأخذ ينظر فى المرآة ، ووجد الدمع يفيض من عينيه على خديه كالوابل الذى هطل فجأة دون مقدمات من سحابة موذنة به ، أو غمامة مبشرة بقدومه ، أو ريح سبقته تسوق إلى الدنيا بشرى قدومه ، **"ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات"**

ولأول مرة يقف على سواد وجهه ، مع أنه يعلم أنه أسود اللون لكنه تناساه ، فما يضره لونه ، ولأول مرة يرى بعض شعره الذى صار أبيض ، ولم يره قبل ذلك ، ولأول مرة يبصر تجاعيد كثيرة تحت عينيه ، بل لأول مرة يرى عينيه غير جميلتين ، فجأة لاحت أمامه العيون الجميلة من وجوه الممثلين والفنانين والإعلاميين والسياسيين ، حتى جيرانه ، كأنه ضغط على موقع من مواقع النت تحت عنوان : عيون الرجال الجميلة ، فأمطرت صفحته بالعيون الجميلة حقا ، وما حقد أحدا على جمال عينيه ، إنما ازداد ألما ، لأنه كان يتوهم أن عينيه أجمل العيون فى الدنيا ، ثم قال : صدقت ابنة عمى ، أنا واهم أننى ليس لى مثيل ، ولكن الله أدركه بواسع فضله ، فأفاق ، ومن فوره خطب امرأة من لونه ، ففرحت به ، فأحس أنه ذو قيمة ، ولكنها القيمة الحقيقية لا الوهمية ، والفرق بينهما أن قيمتك الحقيقية أن ترتدى ثوبك ، لا ثوب غيرك الذى هو ثوب زور ، فإذا صدقت أنه ثوبك فأنت أعمى ، والإسلام يعالج العمى .

القيمة الوهمية

لو أن الناس سكتوا عندما قال لهم ذلك القائل : إن الجمل قد طلع النخلة لظلوا فى وهم عظيم ، وإنما أتوا إليه بجمل ، واقتربوا به من نخلة ، وقالوا له هذا الجمل وهذه النخلة فأرنا أرنا ، والله عز وجل يقول فى محكم التنزيل : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦"

أمر بالتبين حتى لا يتصرف الإنسان عن شائعة ووهم ، فيضر بريئا ، ويظلم أخا ويندم ولكن بعد فوات الأوان .

والتبين ليس فقط تبين أخبار وأنباء ، وإنما هو أيضا تبين أحوال ، وقيم ، ومواقف ، وحياة ، ولو لم يقل الناس لهذا الرجل المجهول : هذا هو الجمل وهذه هى النخلة لتوهموا أن الجمل بالفعل يمكنه طلوع النخلة بيسر وسهولة وإتقان .

ولطالما توهم الناس قيما فى أشخاص وأشياء كثيرة ، والأشخاص وتلك الأشياء فى الحقيقة بلا قيمة ، بل إن الدجالين أصحاب الخطوة الكبرى فى تلك القضية ، فإن كثيرا من الناس يتوهمون أنهم ذوو قيمة ، وتلك قيمة وهمية

بل إن المرأة ترش ماء على باب جارتها ، أو من غاظتها ، فتظن تلك الجارة وغيرها أنها مياة سحرية ، وأن له قدرة على إحداث تغيير سيء فى حياتها ، وأنها منذ رشتها على بابها وزوجها قد تغير ، وخطيب ابنتها ولى ولم يعقب ، ومنذ رشتها والرزق ضيق والأبواب مغلقة والدنيا ذات لون أسود بعد أن كانت ذات ألوان متعددة ، كل ما فيها جمال وربيع ، والحقيقة أن زوجها قد تغير ؛ لأنه إما مرض بعد صحة وإما أتته معضلات مادية لم يحسب لها من قبل حسابا ،

وإما أنها السبب فى تغييره ، عشرات الأسباب الحقيقية وراء تغيير زوجها ، ليس من بينها ذلك الماء المرشوش .

وخطيب ابنتها خرج ولم يعد لأسباب كثيرة كذلك ، ليس منها الماء المرشوش ، وهى أسباب ذات قيمة حقيقية ، لمن أراد أن يعالجها ، إما أنه كان ينوى الفرار قبل رش الماء لضغوط مادية ، أو لشىء بدا له ، أو بسبب جميلة لاحت له فى الأفق ، أو حب قديم عاد إليه من جديد لكن ذلك وافق رش الماء فظنته تلك المرأة هو السبب ، وما هو بالسبب الحقيقى ، إنما هو وهم أو قيمة وهمية كما أقول ،،

وقد تتكرر قصة بالإيجاب والسلب تبرز هذا المعنى فى حياة كل منا ، وهى قصة أو حكاية عن فلان وفلانة وربما عن كتاب أو شارع أو بلد ، فنتوهم ، أو بلغة البلاغيين نتصور أشياء إيجابية أو سلبية ، فإذا قابلنا أو عاشرنا فلانا هذا اختلف الحكم ، فقد بينا من خلال معرفتنا الحقيقية به أنه على خلاف ما تصورناه ، ولذلك قال الناس : لن تعرف فلانا حق المعرفة إلا إذا عاشرته .

وقد تقرأ الكتاب الذى كتب حوله عشرات المقالات ، وأقيمت على موضوعه عشرات الندوات ، فإذا بك تقول : علام هذه الضجة ، ولم كانت هذه الندوات ، وما الذى كتبته تلك الأقلام ، إن هذا دون ذلك بكثير .

وقد يحكى لك عن بلد أو منطقة ، أو حى أو شارع ، فإذا ساقتك الأقدار إليه وجدته على خلاف ما وصف ، إما أنه أفضل مما قيل ، وإما أنه دون ذلك بكثير ، وقد قال الناس من قديم " ليس من راء كمن سمع " ، أى ليس الخبر كالمعاينة ، وقد روى أن عظيماً من العرب أخبره الناس أن أولاده قد قتلوا فما جزع ، فلما رآهم أشلاء وقع وتمرغ فى التراب ؛ لأن الرؤية بالعين بخلاف السماع بالأذن .

القيمة الوهمية

المناجشة منهى عنها شرعا كما جاء فى الحديث الصحيح "ولا تناجشوا" ، ومعناها أن يزيد إنسان فى سعر سلعة وهو لا يريد أن يشتريها ، وإنما يريد أن يغر بها المشترى ، يفهمه أنها ذات قيمة غالية ، حتى يزيد البائع من ثمنها على حساب المشترى ، وبعد ذلك يأخذ نصيبه من البائع ؛ لأنه بمثابة من باعها له بالثمن الكبير

قال لى ذو ثقة إنه صحب ولده إلى سوق المواشى بإحدى المحافظات من أجل أن يشترى خروفا للأضحية ، وحين توقف عند رجل جالس وأمامه خروف يعرضه للبيع ، وقبل أن يقول له : السلام عليكم ، جاء مارد فى طرفة عين وخاطب الرجل الجالس ، وقال له : بعت يا عم بالألف ومتين باركت ! بارك ... بارك ، وابتسم الرجل الجالس ابتسامة باهتة ، وقال للمناجش : يا اخى روح ... الله يسهل لك ، ثم نظر فى وجه الرجل وقال : هل رأيت ؟ هل تزيد ؟ ، قال الرجل : أزيد على ماذا ؟ ، قال : على الألف ومتين .

رأى هذا الرجل الثقة أن هذا الخروف لا يساوى ثمانمائة جنيه فضلا عن الألف ، فتركه وانصرف ، وأخذ ولده معه وهربا من السوق ، واشترى من مكان آخر أفضل من الذى رآه وبثمن معقول .

إن المناجش كما قلت لا يريد أن يشترى ، ولو كان فى حاجة حقيقية إلى هذا الخروف لما زاد عن الخمسمائة جنيها واحدا ، لكنها القيمة الوهمية التى غرضها خداع الناس ، بزيادة الثمن التى تعنى فيما تعنى أن الشىء الذى يزاد فى ثمنه عظيم القيمة ، وما هو بذى قيمة أحيانا ، فضلا عن كونه ذا قيمة عالية تتناسب وهذا الثمن الكبير .

وكما تكون المناجشة فى المبيعات المادية كذلك تكون فى المعنويات ، فهذه امرأة مدحت فتاة كانت جارتها لعريس نزل فى أجارة قصيرة ، وكان يود أن يتزوج سريعا ويعود بعروسه إلى حيث يعمل بإحدى دول الخليج ، مدحتها بعظيم الصفات ، وجميل الشمائل فى الشكل الذى بدا له حين رآه أقل بكثير جدا مما ذكرت ، فشعرها أطول منها ووجهها كصفحة القمر ليلة التمام ، وعودها عود البان ، وتعليمها عال عال ، مع أنها حاصلة على الدبلوم ، وعن أعمال البيت حدث ولا حرج ، فهى طباخة ماهرة ، تأكل أصابعك إثر أكلك شيئا مما أعدت ، وقل يا سلام على الصنوف الجديدة المبتكرة التى لو سمعت عنها فنادق الخمس نجوم لأتت إليها تخطب ودها ، وتتعاقد معها ، أما عن الصنوف التقليدية المعروفة فهى فيها ماهرة ، إلى درجة محيرة ، فمع أنها – أى الواصفة – فى سن أمها ، وهى ذات خبرة طويلة بالطهى قديمه بالذات وجديده إلا أنها تشهد لها بالتفوق عليها بعد أن تذوقت صنيعها ، وما عملت يداها ، وتلك شهادة خالصة لوجه الله تعالى .

وحدث عن التدبير ولا حرج ، وعن الدين وما أدراك ما الدين ، إنها أحق بلقب "شيخة" من أساتذة الجامعة التى تطلع على الفضائيات ، وهى صوامة قوامة تحافظ على أذكار الصباح والمساء ، وهى ذات قلب أبيض ، تسامح من يسىء إليها ، وتعفو عنه ، وتتصدق على الفقراء والمساكين .

الأمر الذى جعل الخاطب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه ، ويصفق بكلتا يديه : متى أراها؟ متى أراها ؟ ، فقالت له هذه العبارة الشهيرة : اصبر على رزقك ، فلما رآها لم يجد شيئا مما قالت ، وخطر بباله هذا السؤال ، فوجهه إلى الواسطة ، فقال : علمت بأن لك ولدا شابا ، فلماذا تركتها لمثلى ، ولم تحرصى عليها لولدك ؟ ، فأجابته بقولها الذى كان جاهزا : إنه القلب وما يريد ، فقال : صدق قلب ولدك ، وأظن ، وصدق قلبى أيضا .

القيمة الوهمية "الأسباب والعلاج"

الأخذ بالظاهر

ومن أسباب توهم القيمة أو القيمة الوهمية الأخذ بظاهر الأشياء ، بأن تحسب مثلا كل سمين ذا صحة ، وقد يكون شحمه ورما كما قال المتنبى ، وأن تحسب كل حامل شهادة جامعية عالما ، وكل من طبع كارتا وكتب عليه ما شاء أن يكتب صادقا ، وكل من كتب على محله أو دكانه كلمة تدل على أمانته وصدقه ووفائه كذلك صادقا ، وكل من قيلت فيه كلمة وخطبة وقصيدة أهلا لما جاء فيها ، وهكذا

فالقيمة الحقيقية ليست فى ظاهر الأشياء ، ولا فى الكلمات وإنما تكون بالمعاينة والمخابرة والتجريب ، ولا تكون بالخطب الرنانة ، والقصائد العصماء ، والمديح ، وما تراه العيون من زخرف الأماكن والأشياء ، ونحو ذلك

جاء أبو سعيد الخدرى ومعه أبوه رضى الله عنهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أجل أن يضمه إلى صفوف المجاهدين ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : إنه صغير ، فقال أبوه رضى الله عنه : لا يغرنك يا رسول الله صغر سنه ، إنه عبل العظام (أى عريض العظام قوى)

وقد جاء فتى آخر ، رده رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغر سنه ، فأراه أنه يصارع ، فصارع من هو أكبر منه سنا فصرعه ، وقيل إن وفدا جاء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وتحدث باسم هذا الوفد صبى ؛ فقال عمر رضى الله عنه : أما وجد القوم أكبر منك ؟ فقال الغلام : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو مكانك ، إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وخطب خطبة بليغة ، سرت أمير المؤمنين ومن حوله

وقد نظر الناس إلى الظاهر ، حين ضحكوا من دقة ساق ابن مسعود رضى الله عنه ، فبين لهم صلى الله عليه وسلم أنها سوف تأتى يوم القيامة مثل جبل أحد

فقد يقلل المرء قيمة الرجل لما يراه من ظاهره الذى يبدو للناظرين قليل القيمة . وهو فى الحقيقة عظيم القيمة ، والعكس ، أى يعظم قيمة امرئ لما يراه من ظاهر له عظيم ، فإذا اكتشف أمره من خلال المعاينة والمخابرة وجده دون ذلك بكثير ، ولدينا فى ذلك نموذج للاول ، ونموذج لعكسه .

أما نموذج الأول فيتمثل فى الأحنف بن قيس الذى كان سيدا فى قومه ، وراه رجل كان قد سمع به ولم يره ، فلم يصدق أن هذا الذى يراه هو الأحنف بن قيس ، من دمامة شكله ، وقصر قامته ، وكونه ممتعا بإحدى عينيه ، ولذلك سأله هذا السؤال : بم سدت قومك ؟ ، فقال له الأحنف : بأن قومى إذا عافوا الماء عفته نفسى . وقد سأله رجل هذا السؤال نفسه فقال له كأنه يتهكم منه : بأننى لم أتدخل فيما لا يعنينى.

وأما النموذج الذى هو عكس ذلك ، فرجل ذكره ابن عبد البر – رحمه الله – فى موسوعته التمهيد ، كاد يفتن الإمامين الجليلين مالكا والشافعى ، لما كان عليه من هيئة عظيمة مع أنه يتحدث بضعيف الأخبار ، والأحاديث والأسانيد ، وقد رحم الله الإمامين من تلك الفتنة ، فلم يأخذا عنه ، وهناك قصة معروفة تنسب إلى أحد الأئمة ، قيل هو أبو حنيفة ، كان يمد رجله فى الدرس إذا تعب ، وذات مرة وجد فى مجلسه رجلا عظيم الهيئة يرتدى زى العلماء الكبار ، فهابه الإمام ، ولم يمد رجله ، حتى سأله هذا السؤال : ترى يا إمام هل صيام رمضان سنة أم فريضة ، فقال له قبل أن يجيبه : الآن أمد رجلى .

وكم من ذى هيئة عظيمة يخدع الناس بهيئته ، وربما يكون ما عليه من ثياب من قبيل الإعارة ، كما قد تكون سيارته مستأجرة ، وكذلك بيته ، فلا تخدعنك المظاهر ، فهى من العمى والإسلام يعالج العمى .

غياب القيمة "الأسباب والعلاج"

الجهل

أول سبب من أسباب غياب القيمة الجهل ، ومن ثم قال الناس : من لا يعرفك يجهلك ، ومن جهلك لن يعرف قيمتك ، وقد قال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم :"وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ "

وأول ما نزل من الذكر الحكيم قول الله تبارك وتعالى : "ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ "

والقراءة عامة ، وثمرتها المعرفة والعلم ، **"قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون"**

وقد دعانا ربنا عز وجل إلى التعارف فقال سبحانه : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ " ، وللتعارف ثمراته العظيمة ، من تبادل المنافع والخبرات ، والمصالح بين الناس ، ومن تلك الثمرات أن يعرف بعضنا قيمة بعض . وقد تخفى عليك قيمة إنسان معين ، فتسخر منه ، ومن أجل هذا الاحتمال ، أن يكون خيرا منك ، حرم الإسلام السخرية ، قال الله عز وجل : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ

عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ "

عد السخرية والاستهزاء ، واللمز والتنابز بالالقاب من الفسوق ، أى من الخروج عن تعاليم هذا الدين الحنيف ، الذى من مقاصده تزكية النفوس والأدب الجم فى التعامل بين الناس ، حتى مع الذين لا نعرفهم

وفى هذا السياق يطيب لى أن أذكر حديث البخارى الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره"، قالها صلى الله عليه وسلم فى النظر بن أنس رضى الله عنه ، حيث قال : " والذى بعثك بالحق لن تقطع ثنيتها" فى أخته الربيع ، حيث كسرت ثنية جارة لها ، فأبوا أهل المكسورة إلا القصاص ، فلما قال النضر ذلك تنازلوا عنها ؛ فقال عليه الصلاة والسلام هذا الحديث . ومثل هذا الأشعث الأغبر يجهل الناس ما وراءه من معان عظيمة ، أنه مجاهد فى الله حق جهاده ، وقد لقى الله هذا الصحابى شهيدا يوم أحد ، بعد أن جاهد جهادا عنيفا ، وجرح جراحات عظيمة ، إلى درجة أن أحدا لم يعرفه سوى أخته رضى الله عنها ، عرفته بعلامة فى قدمه ، وهذا الجهل بما وراء الشخصية التى تبدو فى هيئة رثة ، أو ضئيلة الحجم ، كساق ابن مسعود رضى الله عنه ، التى ضحك منها الصحابة رضوان الله عليهم ، لدقتها ؛ فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنها سوف تأتى يوم القيامة تزن جبل أحد ،،

ولا شك أن الذين يتعارفون ينفون بهذا التعارف الجهل الذى هو سبب من أسباب ضياع القيمة وغيابها ، ولا شك أن معرفة قيمة الإنسان وقيمة الأشياء لها عظيم النفع والفائدة ، فمن عرف أن لإنسان قيمة أفاد بلا شك من هذه القيمة ، بأن يعلمه إن كان معلما ، وأن يعالجه إن كان طبيبا ، وأن ينصح له إن كان من أهل الرأى

والحكمة ، وأن يعطيه مما رزقه الله إن كان من أهل المال ، وكان محتاجا ، وهكذا . وكم من مصالح لم تقض ، ومنافع لم تتحقق بسبب غياب القيمة ، ومن ثم نصح الناس بعضهم بعضا من قديم بأن يلتزموا الأدب مع الطبيب حتى يتثنى له معالجتهم ، ومع المعلم حتى يتثنى له أن يعلمهم .

وقد نقل ابن عبد البر رحمه الله فى موسوعته التمهيد ، أن بعض السلف قال : " لقد أغضبنا ابن عباس رضى الله عنهما ، ولو لم نغضبه لتعلمنا منه الكثير" ، وكم أغضبنا نحن علماء وأطباء ، وذوى خبرة بسبب سوء سلوكنا معهم ، الذى يعد دليلا على أننا لا نعرف قيمتهم حق المعرفة ، غيبنا قيمتهم فحرمنا انفسنا منافع كثيرة كان من الممكن أن تأتينا من قبلهم لو قدرناهم حق قدرهم .

غياب القيمة "الأسباب والعلاج"

التجاهل

إذا كان الجهل من أهم أسباب غياب القيمة ، فإن التجاهل كذلك من أهم أسباب غيابها ، إن لم يكن أشد خطرا من الجهل ، ومعنى التجاهل أن يدعى إنسان أنه لا يعرف قيمتك ، وهوم فى واقع الأمر يعلم مقدارك جيدا ، لكنه يظهر لك أنه لا يعرفك ، ولذلك التجاهل أسباب متعددة ، أهمها سببان :

الأول : أنه مرض نفسى عند هذا المتجاهل وأمثاله ، مرض يجعلهم يحتقرون كل شىء ، ويقللون من قيمة كل شىء ، وعلى ألسنة هؤلاء كلمة معروفة محفوظة شائعة ، كالمثل السائد ، وهى " وإيه يعنى " ، وإن قلت له : هذا والدك قادم ، أو قادما بالرفع أو النصب ، قال لك : وإيه يعنى ، وإن قلت له : إن هذه السيارة غالية جدا ، تتجاوز المليونين ، قال لك : وإيه يعنى .

والثانى : وهو من الأمراض النفسية كذلك ، أنه يريد أن يراك على هذا الوجه ، ما أثره فيك ، وما انطباعك ، وما انفعالك ؟ ، وما آثار بادرتك ، ومعظم الذين يرتكبون هذه الحماقة يريدون أن يفضحوك بين الناس ، إذا ما بدرت منك بادرة (أى كلمة سيئة سريعة من أثر الغضب ونحوه) ، عندئذ يقولون : "هذا رجل الدين ، هذا العلامة ، هذا ابن الأكابر ، هذا فلان الذى ترفعون قدره فوق أقداركم وأقدار الناس اسمعوا ماذا يقول ، وإذا كان مثله يقول هذا الكلام فالعذر كل العذر لنا معشر الجهال الذين لم يدخلوا مدرسة ، ولا جامعة ، ولم يحصلوا على الدكتوراة ، ولم يصيروا علماء نابغين ، ونجوما بارزين ، على الله العوض ومنه العوض"

ذلك هو الذى يشفيه ويشفى نفسه المريضة ، وهو يعلم أن الناس يصدمون بمثل هذا ، وينزعجون له ، ويؤثر فيهم ، فهم يريدون العلامة والنبيل وحامل الدكتوراة ، على الوتيرة الواحدة المعهودة عنه حال الرضا ، يريدونه فى غضبه كأنه فى قمة رضاه ، كأنه ليس بشرا مثلهم ، ينفعل كما ينفعلون ، ويتأثر بما به يتاثرون ، وينفعل كذلك بسبب كالذى ينفعلون من أجله ، وهذا ليس من الموضوعية ولا من الإنصاف ؛ فالأنبياء عليهم السلام ، وهم صفوة الخلق ، والمعصومون كانوا يغضبون ، وقد ورد فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم اجعل كل ما دعوت به على أحد وأنا فى غضبى فاجعله كفارة له"

أى أنه صلى الله عليه وسلم حال غضبه دعا على بعض الناس ، لذلك جعل ذلك كفارة له ، بدعاء طيب له ولغيره ، فما عسى أن يستنكر من عالم أو نبيل ونحوهما وهم بشر ، كسائر الناس ، وإن كان فيهم ما ليس فى الناس من قيمة ، لكن فى النهاية هم بشر ، يتأثرون وينفعلون ويغضبون ، وهكذا .

ولا شك أننا كلما حافظنا عليهم أفدنا منهم ، وكلما حافظنا على هدونهم أفدنا منهم كذلك ، كما ذكرت قبل من قول السلف الذين أغضبوا ابن عباس رضى الله عنهما ، ولولا ذلك لأفادوا منه علما كثيرا ، ولو أنصف الناس لما انفعلوا وتأثروا ورموا بالحجارة كل ذى قيمة إذا غضب ، وإذا ثار ، ولله در القائل :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

هكذا الحال بالنسبة إلى أهل القيمة ، نغضبهم ونتجاهل قيمتهم ونحتقرهم فإذا غضبوا وتأثروا لعناهم ، وقلنا هؤلاء هم الرموز ، والصفوة ، فانظروا إليهم ، ماذا يفعلون ، وماذا يقولون ، ويصفونهم بأنهم كالجهال الذين لا علم عندهم ، ولا نبل فيهم ، ولا قيمة لهم ، وعلاج ذلك بتربية الأجيال على تقدير القيمة للناس منذ نعومة أظفارهم ، وأن الذى يقدر قيمة ذى القيمة هو بذلك ذو قيمة ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه .

غياب القيمة "الأسباب والعلاج"

اضطراب النفس

ومن أسباب غياب القيمة اضطراب النفس ، ومعظم النفوس مضطربة خصوصا فى زماننا هذا ، حيث المفارقات العجيبة بين الناس ، ففئة فى نعيم من العيش ، وفئة فى جحيم منه ، وظهور طائفة من هواة الدعاة لا يتحدثون فى موضوع من موضوعات تبنى الشخصية ، إى على عزم الأمور ، إنما يتحدثون فى رقائق بلا سند ، وأمور أقرب إلى الهامش منها إلى المتن ، وبعضهم يتحدث فى أمور الدين والفتيا ، وهو ليس متخصصا ولا ناذرا عمره من أجل العلم ، الأمر الذى تكون نتيجته المفارقة بين كلام هؤلاء وكلام الثقات من العلماء ، الأمر الذى يحدث بلبلة واضطرابا بلا شك ، فالاضطراب وارد من جهات شتى ، ومواطن متفرقة

ومنها سوء العلاقات الاجتماعية ، وقطيعة الأرحام وسوء الجوار ، وكذلك طغيان الجانب المادى الذى كاد يصير عنوان الحياة ومعيار التفاضل بين الناس ، وقد استحوذ على كثير من الناس ، فصاروا لا يقدرون إلا صاحب المال ، ومن ثم توارت قيم ، واختفت قمم ،لأنها ليست من المال فى شىء ، بل إن نعم الله تعالى صارت عند هؤلاء الناس هى المال فقط ، ترى المرء إذا توفر له المال قال : أنا فى نعمة ، وإن لم يتوفر له رأة نفسه فى مبعدة عن النعم ، مع أنه فى موفور من النعم ، " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" ، يكفى أنه يرى بعينيه ، ويسمع بأذنيه ، وأجهزة بدنه سليمة ، وعنده زوجة صالحة ، وولد بار ، وجار حسن الجوار ، وغير ذلك مما لا يحصى من النعم ، قال الله عز وجل : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ " . ولن يشكر امرؤ ربه جل وعلا على النعم وهو يرى أنها ليست من النعم ، لابد أن يعرف أولا أنها نعمة ، فإذا عرف أنها نعمة تسنى له أن يشكر الله عليها ، أما إذا تعامل معها على أنها ليست من النعم ، وأنها كما يقال : شىء عادى ، فكيف يتسنى له شكرها ، وهى عنده ليست من وادى النعم

والنعمة فى حد ذاتها قيمة ، وقيمتها فى أنها تجعل كثيرا من الناس وهم الذين يفهمون معناها يعيشون فى نعيم ونعومة ، فكيف يظن إنسان كائنا من كان أنها ليست بذى قيمة ، ولنا حديث طويل عن ذلك سوف يأتى إن شاء الله بعد ذلك

المهم أن لدينا دليلا على ذلك ، وهو أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين خاطبها الناس فى حادثة الإفك ، قالت : لا أقول لكم إلا كما قال أبو يوسف "فصبر جميل" ، قالت : أنسيت اسم يعقوب ، وذلك للاضطراب الذى كان ، ونحن لا ننسى أنها مع أنها نسيت اسم النبى الكريم يعقوب ، إلا أنها لم تنس قيمة ما قال ، حيث قال : فصبر جميل والله المستعان ، وليس كل الناس مثل عائشة

رضى الله عنها على هذه القدرة النفسية فى المحن والاضطرابات ، إذ هناك من إذا اضطرب عمى ،،

ومن هذا السياق أقول : إن حالة الطلاق لا تقع إذا بلغ الغضب مبلغه فرأى الأرض سماء والسماء أرضا ، كما قال الشيخ أحمد الصاوى رحمه الله فى حاشيته ، فهل رأيت كيف اضطرب ، فطلق ؟ ، ومن رحمة الله عز وجل أن طلاقه لا يقع ،،

ومن الأصول فى هذا الدين أن القاضى لا يقضى وهو غضبان ، ولا وهو جائع ، ولا وهو يدافع الأخبثين (البول والبراز) ؛ لأن ذلك كله يجعله مضطربا ، فإذا اضطرب غاب عنه الصواب ، والعدل ، وهما من القيمة بمكان ، هل رايت كيف يغيب الاضطراب القيمة ، وهذا الاضطراب من العمى والإسلام يعالج العمى .

غياب القيمة "الأسباب والعلاج"

اختلال الموازين

أى أن من أسباب غياب القيمة اختلال الموازين وتغير الظروف والأحوال وأقرب مثال على ذلك قيمة العملة ، حيث تراها فى صعود فلها عند ذلك قيمة ، وتراها فى هبوط أحيانا فقد غابت قيمتها ، وصارت تقريبا بلا قيمة .

والناس فى ذلك يعرفون السبب ، الذى يرتكز فى الاقتصاد ، وقد زاملت المرحوم الاستاذ الدكتور / حامد التاج فى جامعة الإمام محمد بن سعود فى ابها ، ومازحته ، حيث قلت له : إننى أود الحصول على مليون جنيه سودانى ، وكان رحمه الله من السودان ، فضحك وقال لى : ما أسهل ذلك ، هات خمسمائة دولار ، وأنا آتيك فى الإجازة القادمة بالمليون وزيادة ، وكان ذلك فى عام ١٩٩٤ م ،

وأقسم لى الرجل أنه ينفق فى اليوم الواحد من إجازته مئات الألوف من الجنيهات السودانية ، وكانت ربطة الجرجير الأخضر بحوالى ألفى جنيه ، معنى ذلك أن الجنيه السودانى فى تلك الفترة كان بلا قيمة .

وقد كنا فى زمان الطلب فى الأزهر الشريف نعد من كان معه جنيه مصرى من الأغنياء ، لأن جرام الذهب كان ببعض الجنيه ، وقد صار عند كتابة هذه السطور بحوالى مائتين وستين جنيها ، وأذكر أننى اشتريت كيلو اللحم فى تلك الفترة بأربعين قرشا ، وقد اشتريته بالأمس بأربعة وستين جنيها ولله الحمد ،،

ومعروف ما يسمى بمعدل التضخم ، وخلاصته أن ما يساوى جنيها فى هذا العام يساوى فى العام القادم مثلا جنيها وعشرين قرشا ، وهكذا ، تتغير القيمة ، والذين يحافظون على قيمة العملة لديهم أحيانا يضحون من اموالهم الخاصة كالملوك الحكام ، يضخون من تلك الأموال المليارات من أجل المحافظة على قيمة الجنيه .

ومن هنا أقول إن هذا ليس حلا صحيحا على طول الخط ، وإنما الحل الصحيح أن يحافظ عليه كل مواطن من خلال العمل وإتقانه ، وتجويده وحسن إنفاقه الذى أطلق عليه إرشاد الإنفاق ، أو ترشيد الإنفاق ، وهذا يحتاج إلى فقه الأوطان .

وعلى سبيل المثال زرع الناس صنوفا من المزروعات وصدروها للخارج ، لكنها رجعت إليهم لسوء ما هى عليه ، والذى أطلق عليه المخالفة لشروط التصدير ، وسبب ذلك خسائر فادحة ، كان بالإمكان تجنبها لو كانت منتجاتنا مطابقة للمواصفات ، وهكذا تفقد الأشياء قيمتها بالإهمال ، أى أن الظروف قد تغيرت إلى أسوأ ، لا بسبب جانحة من الجوائح ، أى القضاء والقدر ، وإنما

بسبب إهمالنا ، وقس على ذلك عشرات الأمثلة والنماذج التى هى من تغيير الظروف والأحوال ، ومنها وأخطرها الإنسان ، أى ذو القيمة من الناس .

كان البقالون وغيرهم فى الماضى يبيعون للموظف بالدين (الشكك) ؛ لأنه مضمون ، حيث إنه آخر الشهر سوف يقبض راتبه ، ويقضى ما عليه ، بل كان الناس يفرحون بمصاهرته ، لأنه ذو راتب يحقق لابنتهم حياة كريمة ، تغيرت الظروف والأحوال وصار الذى فى المقدمة فى المؤخرة ، فراتب الموظف أمامه دخل عظيم لغيره من الصبية الذين هم فى سن ولده ، أو أصغر منه ، ويتقاضى أضعاف أضعاف راتبه ، لأنه يعمل فى مجال الفنون أو الأعمال الهابطة ، أو الخاصة التى يمتص فيها دماء الزبائن ، فضاعت قيمة المعلم والموظف وغيرهما من السادة المربوطين بمرتبات الدولة ، ولو أردنا أن نحافظ على قيمة هؤلاء أكرمناهم ، ورفعناهم فوق مستوى الدنية ، حتى يعرف الناس قيمتهم ، أو حتى يعرفوا هم قبل غيرهم أن لهم قيمة .

غياب القيمة "الأسباب والعلاج"

اختلال العقل

العقل فى تلك الشريعة الغراء مناط التكليف ، أى إذا وجد العقل وجد التكليف ، وإذا عدم العقل عدم التكليف ، ومن أهم أسباب غياب القيمة اختلال العقل ، وتغييبه بسكر ونحوه ، فالمجنون لا يفرق بين ذهب خالص وصفيح ، ولا بين مصحف ، والصحف السيارة ، ولا بين أب كريم ، وأجنبى لئيم ، فكل الأشياء عنده سواء ، وكذا من غاب عقله ، وكان هو الذى غيبه بيده ، بأن صار مدمن خمر ، ومخدرات ، والمرء إذا غاب عقله لم يعد قادرا على التمييز بين الأشياء ،

فلا فرق عنده بين غال نفيس ، وبين تافه رخيص ، وتراه مقبلا على التصرف فى أمور عظيمة كأن يبيع بيته ، أو يطلق امرأته ، وجمهور الفقهاء على أن طلاق السكران يقع تأديبا له ، حتى لا يتمادى فى السكر ، ويتخذ منه حجة ، كأنك تقول له : اشرب وطلق ، فإن طلاقك لا يقع ، تشجعه على ذلك ، وهذا لا يصح ، ومن أجل ذلك يقع طلاق السكران ، كما رأى جمهور الفقهاء .

وقد يصيب العقل اختلال لسبب آخر لا يفكر فيه كثير من الناس ، وهو الركود ، وعدم التنشيط الذهنى ، والمتابعة للأشياء ، كالذى لا يدرى عن جرام الذهب فى هذه الأيام ، وآخر عهده به أنه كان بجنيه ، وكالذى لا يعرف قيمة قطعة أرض عنده ارتفع ثمنها مثلا ، وهو بوسعه بناء على هذا الاعتباط أن يبيعها بثمن بخس دراهم معدودة ، وكالذى لا يشعر بما يجرى حوله من أحداث ومواقف لها بلا شك أثرها عليه سلبا وإيجابا ، إنه إن لم يدرك تلك الأحداث ، والتغيير الذى تسفر عنه وقع فى مخاطر لا يعلم مداها إلا الله عز وجل ، والراسخون فى العلم الذين ما كان لهم أن يكونوا راسخين فيه إلا بتنشيط عقولهم وتغذيتها بالقراءة والاطلاع ، والتدبر لما طالعوه وحفظوه .

وقد كان الناس يظنون أن الإمام البخارى صاحب الجامع الصحيح يتعاطى دواء معينا يقوى ذاكرته ، لأنه كان بارعا فى الحفظ ، وسألوا محمد الوراق ، رحمه الله كاتبه ، أن يسأله عن هذا الدواء ، وأن يعرفهم به ، حتى يتناولوه ، فسأله رحمه الله ، فقال : لا أتناول دواء ، ثم تفكر رضى الله عنه ، وقال لمحمد الوراق : نعم إنى أتناول دواء فأخبرهم به ، فقال محمد الوراق : وما اسم الدواء ؟ قال : إدمان النظر فى الكتب .

فإدمان النظر فى الكتب خير دواء من أجل تنشيط العقل والذاكرة .

ونحن والحمد لله ندمن النظر فى الشاشات ونشاهد جميع القنوات ، ومعظمها يتحدث من واد بعيد لا صلة له بالواقع ، ومعظمها يتحدث عن نزعته ومذهبه واعتقاده ، ويرى الآخرين له أعداء ، وهم الذين يخالفونه فى ذلك ، وقل من تراه معنيا بالقراءة إلى حد يقل فيه بكثير عن حد الإدمان الذى عرفه الإمام البخارى ، وغيره من ائمة الحفاظ والعلماء ، والفقهاء وغيرهم ، وكما يقول الناس نحن أمة اقرأ ، ولا نقرأ ، نعم أول ما نزل من القرآن : " **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾**"

وقل من يقرأ وهو يعى ويتدبر ، وقد قال الله عز وجل : " **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** "

هذا وبعض الناس يتعمد تعطيل عقله ، ويمشى وراء القول السائد : من تفكر تعكر ، وبعض الذين لا يدركون المعانى من المتصوفة يقولون : لا تدبر لك أمرا ، وكل ذلك من تعطيل العقول ، والنوم على فراغ ، ومن كان كذلك جهل قيمة الأشياء ، والجهل بقيمة الأشياء من العمى والإسلام يحارب العمى .

الفصل الرابع

ما أحدثه المغرضون من إتلاف بيئة القرآن

الخـــــوف

أراد الماكرون بهذا الدين تفريغه من محتواه ببث روح عدم الخوف فى بيئته ، حتى لا تكون بيئة قرآن ، ، فتسمع : أنا لا أخاف إلا من الذى خلقنى ، يعلن مثل هذا الذى انتقل إليه فيروس المكر والخداع أنه لا يخاف أحدا إلا الله الذى خلقه ، ولا يخاف شيئا ، وقائل هذه العبارة إما جاهل ، وإما مريض نفسيا بسبب هذا الوباء ، والثالث أنه لا شىء عنده يخاف عليه حتى عمره ، وهذا الأخير قد يكون له وجه من الغدر ، فعمره ضائع ، ولا زوجة عنده ، ولا ولد ، ولا مال ، فمثله مثل القائل : "ضربوا الأعور على عينه ؛ فقال خاسرة خاسرة"

ومن قديم قيل : الولد مجبنة مبخلة ، وقيل إنه حديث شريف ، لكنه لا يقوى إلى مستوى الصحيح ، ومعنى أن الولد مجبنة مبخلة أى سبب فى جبن والده الذى يتقاعس عن الجهاد من خوفه عليه ، ويتقاعس عن الإنفاق فى سبيل الله والتصدق خوفا عليه من الفقر ، فالذى لا ولد عنده يقدم على المخاطر ؛ لأنه لا يخاف على شىء ، وكذا من لا مال عنده ، أما شيوع عدم الخوف الذى أدى إلى مفاسد عظيمة أخطرها المفارقة بين الدين وبين سلوك أصحابه ، فمن الخطورة بمكان ؛ لأن ذلك إعلان بما يقابل كتاب الله عز وجل ، ففى الكتاب العزيز مواضع للخوف ، أعلاها الخوف من الله عز وجل : " **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** "

والخوف من الله تعالى يقتضى الخوف مما جعله موضعا للخوف ، ومن ذلك :

١- خوف الرجل نشوز امرأته ، "**وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ** "

٢- وخوف المرأة نشوز زوجها ، " وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ "

٣- وخوف المحيطين بهما من شقاق بينهما ، "وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ "

وقد نتج عن ذهاب هذا الخوف فساد كبير فى الأسرة المسلمة ، حيث إن الرجل لا يبالى نشوز زوجته ، وكذا المرأة ، وكذلك المحيطين بهما ، فوقع الطلاق وكان الشقاق ، وعاش الأزواج تحت سقف واحد وهم منفصلون ، لا يعامل بعضهم بعضا ، ولا يود بعضهم بعضا .

ومن الأزواج من يبحث عن حكم عدل يخاف شقاق بينهما – هو وزجه – فلا يجد ، يقول : لا حكم عندها ولا حكم عندى ، لا أحد يهتم ، لا أحد يخاف حدوث شقاق أو غيره ، فإذا به يلجأ إلى الجيران ، أو الأصدقاء ، أو الزملاء ، أو بعض الشيوخ من هواة الدعاة الذين لا خبرة لهم بالأحكام الشرعية ، ولا بالإصلاح بين الناس

وصرنا نرى نتيجة عدم الخوف من ضياع الحياة الزوجية كذلك بالطلاق العشوائى ، وضياع الأولاد ، قيل لرجل طلق زوجته ورمى بأولاده وأهملهم : ألا ترعى ولدك، فقال : طلبت أمهم الطلاق ، فهل رعتهم حتى أرعاهم !

لا أحد يخاف ضياع الأسرة ، فضاعت الأسرة ، ولو كنا نخاف ضياعها لفعلنا ما يلى :

- لأحسنا الاختيار منذ البداية ، ولأقمنا على ما أقامه الدين على الخلق
- ولأحطناه بما يحفظ عليه استمراره ، من أداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق وواجبات
- ولسعينا فى إصلاح البيت كما قال تعالى من أول الزوجين إلى الحكمين

لكن لعدم الخوف أخذنا أى شيء ، وفعلنا أى شيء ، وسلكنا أى سلوك ؛ لأننا لا نخاف العواقب السيئة .

خطب رجل امرأة عقيلة عوانا ، وقبلته ورحبت به ، وعادت أهلها ، وقالت : أنا صاحبة القرار ، أنا لست صغيرة ، وقالت لها إحدى صواحبها المقربات ، إنه زير نساء ، وقد سبق له أن تزوج عشرين مرة ، والوحيدة التى عمرت معه أكملت عاما ، فقالت : ولا يهمنى ، أنا راضية بنصف العام ، ما دام سوف يعطينى قرشين (عليهم القيمة)

تحولت الحياة الزوجية إلى صفقة مادية توارى معنى الخوف من الطلاق ، الذى هو فك عروة الزوجية ، ونقض الميثاق الغليظ .

٤- ومن ذلك خوف الفقر ، ألا ترى إلى قوله تعالى : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ"

وإذا انعدم الخوف من الفقر استسيغت البطالة والتطفل ، وكانت اللامبالاة بالمال ، وكان إهداره والتبذير فيه ، فكانت الرذيلة ، وكان السكر والمخدرات

٥- ومن ذلك الخوف على الذرية الضعيفة من بعد راعيها على وجه الخوف الصحيح وهو تقوى الله ، قال تعالى : "وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾"

فإذا انحرف الخوف عن مساره الصحيح وهو التقوى إلى السرقة والنهب ، فما كان ذلك خوفا ، وما كان هذا الجمع من الحرام من أجلهم سعيا ، وقد ذكر العلماء أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وذلك لقوله تعالى : " وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ"

ومن خاف على ذريته بمن اتقى الله فى أموال اليتامى ، وعدل فى قوله وعمله ، وتحرى الحلال ، ونأى بنفسه وبذريته عن الحرام ، ولم يوص وصية ظالمة ، ولم يبدد ماله قبل رحيله .

٦- ومن ذلك الخوف من الخيانة ، قال الله تعالى : "وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ" ، أى انقض عهدهم على الملأ ؛ لأن الله تعالى لا يحب الخائنين .

٧- ومن ذلك الخوف من العنت وهو مشقة العزوبة ، وسبيل ذلك نكاح من تيسر مهرها ، قال تعالى : "وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾"

ولن يخاف العنت إلا ممسك بدينه وتعاليمه ، فهو لا يضع نطفته إلا فى المكان الذى أحله الله ، ولا يفض الخاتم إلا بحقه ، بخلاف الذى لا يخافه ؛ لأنه إن شعر به أزاله من أى طريق ، فيعبث ويفسد ، ويزنى ، وقد قال الله تعالى : " وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ "

٨- ومن ذلك خوف عدم العدل بين الأزواج ، قال تعالى : "فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾"

انظر إلى هذا الرقى الذى افتقدناه ، خوف عدم العدل تقتضى الاكتفاء بزوجة واحدة ، بعكس عدم الخوف من الغرور ، وادعاء الثقة بالنفس بأنه لن يظلم ، وتكون النتيجة أنه يظلم .

محاولة التنقيص من الشعور

هدم الوجدان وموت المشاعر والأحاسيس ، واستحالة الحياة إلى مادة ، ومصالح شيء هين بالنسبة إلى موت المشاعر والأحاسيس بمضمون الكتاب العزيز ، خصوصا الشعور بأهوال يوم القيامة ، التى من شأنها بث روح الخوف من ذلك اليوم العظيم ، والذى يقتضى عمل الصالحات من أجله ، فهو يوم عسير ، ويوم حسرة ويوم يجعل الولدان شيبا .

ومن أهوال يوم القيامة قول الله تعالى : " يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ "

لا شك أن المسلم حين يقرأ مثل هذه الآيات من سورة عبس يستشعر خوفا ورعبا من ذلك اليوم الذى يفر فيه هؤلاء من هؤلاء .

فهل أنت معى فى أنه لن يشعر بهذا الشعور إلا امرؤ يعيش هذه الحياة الدنيا على ألفة ومودة وتواصل مع من ذكرهم ربنا عز وجل

أما الذى يعيش الفرار فى الدنيا مع هؤلاء فكيف يشعر ، وقد شعر بالفرار من الآن

بمعنى أن أخاه الآن يفر منه ، والأصل ألا يفر منه أخوه ، فهما متلازمان ، متواصلان ، يعملان بمقتضى الأخوة فى النسب ، "قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس" ، وبمقتضى الأخوة فى الله ، "المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يحسده ، ولا يدابره ، ولا يناجشه ، ولا يبيع على بيعه ، ولا يخطب على خطبته ، وهو فى عونه ، فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه "

فإذا أفسدت العلاقة بين الأخوة ، وبين الإخوان فكان الفرار ، وكان وجود أخيك في حياتك كلا وجود ، فكيف يشعر بأهوال فراره يوم الدين .

لقد حدثتنا كتب السير والتاريخ عن نماذج من الأخوة ، تفسر لنا هذا المعنى ، وترينا ما كان من كيد الأعداء لهذا الدين من أجل تفريغه من محتواه ، وإحداث فجوة بينه وبين أتباعه ، فمثلا حويصة وأخوه محيصة من الأنصار ، أسلم أحدهما (الصغير) قبل أخيه ، وحين خان اليهود عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من لقى منكم يهوديا فليقتله ، وعاد الأخ المسلم إلى أخيه فوجد معه يهوديا فقتله ، فقال له أخوه : قتلته ، ولحم كتفك من خيره ، فقال : لو أمرنى من أمرنى بقتله بقتلك لقتلتك ، فاندهش أخوه ، وقال له : لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم ، لعلوتك بالسيف ، فقال أخوه : أشهد أنه رسول الله ، وكان ذلك سببا فى إسلامه ، لماذا ؟ لأنه يعلم أنه لن يسمع كلام أحد يأمره بقتل أخيه إلا إذا كان نبيا مرسلا .

واليوم يعلم كثير من الإخوة أن أى أحد يمكن أن يأمر أخاه بقتله ؛ فإذا به يقتله ، وأن أحدا يمكنه أن يجعله يبيع أخاه بجنيهين ، فقد تقطعت وثائق الأخوة كما تقطعت غيرها من الوثائق ، والوشائج ، ومن تلك النماذج أن عمر رضى الله عنه لم يجد عزاء يعزيه فى أخيه زيد بن الخطاب رضى الله عنه مثل قول متمم بن نويرة ، الذى أنشده مرثيته فى أخيه مالك بن نويرة ، فقال عمر : لو كنت أقول الشعر لقلته فى أخى زيد ؛ فقال متمم : لو مات أخى كما مات أخوك (أى شهيدا) لما بكيته أبدا ؛ فقال عمر رضى الله عنه : ما عزانى أحد بمثل ما عزيتنى ، وقد صار قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلمـــا تفرقنا كأنى ومالكا ... لطـول افتراق لم نبت ليلة معا

كما قال ابن حجر في الإصابة (٤٧٧/٣) سائرا ، أى كأنه المثل السائر

وفى ترجمته له قال : أسلم وأخوه مالك ، فانظر كيف أسلم الأخ بإسلام أخيه ، وقد أسلمت أمم بإسلام سعد بن معاذ رضى الله عنه ، لأنه سيد فى قومه ، بل إن النبى صلى الله عليه وسلم قد ترك عيينة بن حصن ولم يستجب لبعض أصحابه الذين رأوا قتله ، وقال :"إنه الأحمق المطاع"

وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم للأحنف بن قيس ، فقال : اللهم اغفر للأحنف بن قيس ، لأنه كان سيدا فى قومه ، وحين جاءهم كتاب النبى صلى الله عليه وسلم قال لقومه : ما أراه إلا صادقا .

وفى إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى رضى الله عنه ، أول ما أسلم وقد هداه الله ، ذهب إلى دوس ، فلقيه أبوه ، فقال له : إليك عنى فلست منى ولست منك ، فقال : لماذا يا ولدى ، قال : لأنى اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم وأنا على دينه ، فأقبل أبوه يضمه إليه ، وقال : دينى هو دينك ، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقابلته بعدها امرأته ، فقال لها الذى قاله لأبيه ، فقالت : فداك أبى وأمى ، دينى هو دينك ، وأسلمت هى الأخرى .

وفى إسلام واثلة بن الأسقع الليثى رضى الله عنه خرج مسلما بعد صلاة الفجر مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقى أخته ، فقال لها : السلام عليكم ورحمة الله ، فقالت : ما هذه التحية ، فقال : إنها تحية الإسلام ، وقد أسلمت ، فقالت : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وكان الرجل يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عدد من أولاده ، ويسلمون جميعا ، فى مجلس واحد .

صحيح أن هناك من كان بخلاف ذلك ، لكنه بمثابة الشاذ بالنسبة إلى هذه الجموع التى تكشف لنا عن مدى الترابط الاجتماعى ، وقد ثبت أن الرجل كان يبايع النبى

صلى الله عليه وسلم عن نفسه وزوجه وولده ، بل كان الرجل يأتيه وافدا عن قومه ، ثم يعود إليهم بالإسلام فيسلمون .

واليوم تجد فى الأسرة الواحدة الأب ينتمى إلى حزب وزوجه تنتمى إلى حزب آخر ، وهذا يشجع فريق الكرة الفلانى ، وأخوه أو أخته تشجع فريقا مختلفا ، فتهب ريح التعصب فى البيت الواحد ، ويقولون : الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية ، وهذا صحيح ، ولكنه والله يفسد ، فنحن نحفظ العبارات البراقة اللامعة التى تدل على التحضر وليس فينا من هذا التحضر شىء ، وتلك من مآسينا ومن معضلاتنا التى تذهب بريحنا .

وهذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسأله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فى أى ديوان تحب أن أكتب اسمك ؟ ، فقال : مع أبى رويحة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينه ، فانظر إلى مقتضى الأخوة فى النسب ، وإلى مقتضاها فى الله ، كيف كان وكيف صار فى زماننا .

وهل ترى أن ذلك قد كان دون مخطط مدروس لم يتكلم فيه أحد من المثقفين والمصلحين وغيرهم ، وهل لهذا المخطط من هدف سوى إحداث فجوة بين الدين وأتباعه ، عن طريق إفساد العلاقات التى ما كان ينبغى لها أن تفسد ، حتى تظل الأوراق النضرة شاهدا على أنها لن تسقط إلا يوم القيامة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، أما اليوم فكيف يفر المرء من أخيه ، وكيف يفر من أمه ، وفى ذلك من المآسى ما لا يتسع له المجال هنا ، فهناك أمهات باكيات دما لا دموعا بسبب مجافاة الأولاد من بنين وبنات ، وهناك آباء مهجورون ، ومنهم من يعيش فى دار من دور المسنين ، وله ولد ، يعيش أطيب حياة ، ولا يود أن يحدثه أحد فى شأن أبيه

والعلاقة بين الأزواج فى كثير من البيوت علاقة تربو فوق مستوى السوء ، فهناك انفصال دون طلاق ، وهناك صناعة النكد ، تبدأ قبيل الزواج من شروط ،

وبدو عيوب ، والكارثة بعده من المفاجآت غير الطيبة ، والسلوكيات غير الحميدة ، ألا يشعر ذلك بأنه كارثة تتجلى فى عدم الإحساس بأهوال يوم القيامة .

إن المتوقع إذا تليت هذه الآيات : " يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾" يقول الخاطب بها : أعوذ بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، معقولة ، سيحدث فرار من أخى وأمى وأبى ، وصاحبتى وبنى!!

وقد يبكى حين يسمع هذه الآيات ويخاف من هول هذه الصاخة التى يفر فيها المرء من أخيه ، فيعمل من الصالحات التى منها وصل أخيه ، قبل أن يأتى يوم لا وصل فيه بين أخ وأخيه ، إلا إذا كانا صالحين ، لقول الله ربنا : "جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ "

ولا شك أن صلته بأخيه تحقق له الزيادة فى رزقه وفى عمره ، للحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه : " من سره أن ينسأ له فى رزقه وفى أجله فليصل رحمه"

ثم بعد هذه البركة فى الرزق والعمر تكون الصحبة الآمنة فى الآخرة ، فلا شك أنه كان يصل أخاه ، وكان موصلا من أخيه ، وكلاهما مسلم مؤمن ملتزم ، والله عز وجل يقول : "ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾" .

ويحدثنا القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة فى صدر سورة الحج حيث يقول ربنا تعالى : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ

ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ "

ساعة تقرأ هاتين الآيتين كذلك تقول وأنت فى ذهول : سبحان الله ، لا إله إلا الله ، تذهل المرضعة عما أرضعت ؟

فإن راجع اللغة والتفاسير ، أو شرح له عالم علامة بإن إيثار لفظ (مرضعة) على (أم) ، أن المرضعة لابد أن تكون ملابسة للرضاعة مباشرة لها ، بخلاف الأم التى قد تكون مرضعة ، وقد تكون قد فطمت رضيعها ، إن علم ذلك ازداد تعجبا من هول يوم القيامة ، وأنه كما قال ربنا شىء عظيم ، فسر هذا الشىء العظيم بذهول المرضعة عن رضيعها ، والمتصور عند المخاطب أنها لا تذهل بحال ، ومن ثم يكون لهول يوم القيامة أثر فيه ،،

فما بالنا وقد ذهلت عنه فى الدنيا ، وقعدت أمام الشات أو الشاشات ، تشاهد فيلما ، أو مسلسلا ، أو مباراة لكرة القدم ، ويصرخ رضيعها بغرفة نومها ، وهى لا تسمعه ، وإنما تسمع الحكم الذى حكم بضربة جزاء ضد فريقها التى تشجع ، فإذا بها تصرخ وتقول : حكم لا يعرف شيئا ، ثم تدعو الله أن تخطئ ضربة الجزاء مرمى فريقها ، فما الذى أذهلها عن رضيعها ، الذى نبهها إليه الجيران ، وكانت تظن أن صراخه قادم من عندهم ، وقد نسيت أنها أم ، وأن لها رضيعا يصرخ ، فكيف تشعر هذه ، أو يشعر من حولها بهول يوم القيامة من هذه الناحية ، أو فى هذه المسألة .

- ثم ما الذى جعل هذا الوغد ، الذى هو زوجها يضربها ، ويجرى وراءها ، حتى تذهل عن رضيعها ، وتهيم على وجهها ، ثم تتذكر أن لها ابنا أو ابنة ، فى (اللفة) ، فتعود بعد أن ذهلت تستجدى الجيران ، أن يناولوها قطعة اللحم الحمراء التى سكنت فى أحشائها ، وهى عصارة روحها ،

وجماع قلبها ، وخلاصة عمرها ، فلما فشل الجيران فى إقناعه برد ولدها إليها ، تمنت أن تراه ، فلم تتحقق لها تلك الأمنية ، وكان ما كان من قضايا ومحاكم

- وما الذى جعلها تذهل عن رضيعها ، وتجرى وراء ذئب أوهمها أنه يحبها ، وأنه متيم بها ، وخبب (أى أفسد) بينها وبين زوجها ، حتى تركت رضيعها وهربت معه .
- وللفقر بلا شك أثر سيء فى هذه المسألة ، ألا ترى إلى تلك الخادمة التى ناداها مخدومها القاسى كذلك فذهلت عن رضيعها ، وجرت نحوه تقول : لبيك .

ومن هنا ننطلق إلى المسألة الثانية فى الآية الثانية من سورة الحج ، حيث يقول الله تعالى : "وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ" ، حيث إن الفقر والظلم والفساد قد أحدث هذا فى الناس ، فنحن نرى معظم الشعوب هكذا (سكارى) و (ما هم بسكارى) ، أو كما يعبر العوام عن ذلك بقولهم : الواحد ماشى يكلم نفسه

نعم يكلم نفسه ، وقد يصطدم بسيارة دون أن يرى ، مع أنه يرى ؛ لأنه يحسب راتبه ، ويوزعه على أغراضه الأساسية ، ويقول : كيف ، ومن أين ؟!

تصور أن أستاذ جامعة إلى ساعة كتابة هذه السطور لم يصل إلى خمسة آلاف جنيه فى الشهر ، لا تكفى مصروفات طفله المريض ، ولا ابنته الجامعية ، ولا زوجته التى ظنت أنها ستعيش فى رغد العيش ، لأنها زوجة أستاذ جامعى كالذى تراه فى الأفلام ، يسكن القصر ، ويركب فاره السيارات ، وعنده سواق وسفرجى وطباخ وشغالات ، وله حجرة مستقلة فى الكلية على بابها ساع ، يسمع الجرس فيدخل بالقهوة ، ومن بعدها الشاى أو العكس ، فإذا بها تكتشف أن أستاذ

الجامعة الذى شاهدته من خلال الأفلام والمسلسلات شىء ، وأن أستاذ الجامعة الذى تزوجته شىء آخر مختلف ، فهو إن لم يكن صاحب أنشطة خاصة عاجز عن توفير القوت الضرورى ، والأشياء الأساسية التى يحتاج إليها أقل بيت حولها ، وهو إن أنصف الناس – إن لم يكن ذا أنشطة أخرى ، أو لصا يبيع الامتحانات ، ويعطى دروسا خاصة – يستحق الزكاة ؛ لأنها للفقراء والمساكين ، والمسكين هو الذى عنده ما لا يكفيه ، قال تعالى : "أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ"

وأستاذ الجامعة المسكين يعمل فى جامعة ، وقد يكون ما تعطيه الجامعة أقل بكثير مما يعطيه الركاب للمساكين الذين يحملونهم على سفينتهم ، فأنت تراه كما ترى غيره سكران وما هو بسكران ، أى ما هو بمتناول خمرا ، وإنما هو متناول ذلا وفقرا ، يزيده غما أن يرى راقصة تتعاطى الملايين ، ولاعبى كرة ، وغيرهم ، وهو الذى إن سأل عميد كليته بعض مال من أجل العملية التعليمية أو البحث العلمى ، قال له إن كان رجلا مؤدبا : حاضر حاضر ..... سوف أخاطب الجامعة ، وإن كان دون ذلك أجابه بقوله : من أين ؟

وميزانية العلم وبحوثه معروف تدنيها على مستوى عالمنا العربى والإسلامى فى الوقت الذى لم يعد سرا أن يعرف فيه كل الناس ما تنفقه أمريكا وإسرائيل على البحث العلمى ، وغيرهما من الدول المتقدمة ،،

ومعنى ذلك أن حكامنا الذين نسأل الله لنا ولهم الهداية والرشاد مصررون على الفساد برغم خطبهم الحافلة بالحرص على النظام والتقدم ، مفارقات عجيبة ،،

وكأن عند كثير من هؤلاء الحكام رؤية ابن أبى سلول القائل : سمن كلبك يأكلك ، أى أنه من الخير لهم أن يجوعوا الناس حتى يزدادوا خشوعا وخضوعا لهم ، وإذا بهم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن تكاليف الحياة باهظة ، شغلوا الناس

بالفن (إن كان فنا) الهابط الذى يخاطب الغريزة لا الفطرة ، فذهلت المرضعة عما أرضعت ، وصار الناس سكارى وما هم بسكارى ، فحدث البون الشاسع بين الناس وبين الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

- وانظر إلى المعهود عن سيد الوجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، كيف يفهم الناس حياء النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم لا يجدون عذراء ذات حياء ، ولتوضيح ذلك أقول : إن قول علماء البلاغة : محمد كالأسد ،على قصد التشبيه يتصور المخاطب شجاعة محمد ، المشبه ، من خلال المشبه به (الأسد) ، فإن صار الأسد فى زمان أجبن من الكتكوت ، والثعلب ، فهل يتصور معنى الشجاعة فى المشبه !

كذلك الحال فى المعهود عن سيد الوجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، حين يقال : كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها ، فالذى ضيع الحياء فى العذراء إنما ضيع معنى الحياء فى النبى الأمى الخاتم ، وبناء عليه فنحن فى حاجة إلى تشبيه آخر ، يليق به صلى الله عليه وسلم ، ولا نجد ذلك التشبيه ، فليس أمامنا إذا أردنا إحسانا وتوفيقا إلا أن نرجع الحياء إلى العذراء حتى يتبين لنا حياء النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك الحال فى سائر المعانى التى فسدت من أجل ألا تحدث المفارقة العجيبة بين الدين معانيه وبين أتباعه ، أى لابد من إعداد البيئة الصالحة لكى تكون بيئة القرآن الكريم

ألا ترى إلى قوله عز وجل : "فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ" ، وإلى الحديث الشريف الصحيح الذى ورد فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل يعظ أخاه فى الحياء ، فقال له : دعه فإن الحياء من الإيمان ، وقد ورد فى الصحاح عنه أنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : الإيمان بضع وستون (وفى رواية وسبعون) شعبة ، والحياء شعبة من شعب الإيمان .

وما يتصل كذلك بأهوال يوم القيامة قول الله تعالى : "وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾" فالمتصور كذلك أن المخاطب بمثل هذه الآية يستشعر خطرا عظيما فى يوم الدين ، وهذا الخطر مبنى على أن نفسا لا تنفع نفسا ، ولن يستشعر هذا الخطر إلا امرؤ يجد من ينفعه فى الدنيا ، فيرى أن هناك فرقا بين الدنيا التى يتحقق فيها النفع بين الناس ، وبين الآخرة التى لا ينفع فيها أحد أحدا

ولكن هل يستشعر هذا الخطر امرؤ استقر فى يقينه أنه لا أحد ينفع أحدا أساسا من الآن ، فما الفرق ؟ إنه إن احتاج إلى شىء من أخيه قال له أخوه : من أين ؟ وشاع بين الناس قولهم : لا أب نافع ، ولا ابن نافع ، ولا أخ نافع ، ولا زوج نافع ، ويعوض علينا ربنا ....

وسريان ذلك فى البيئة خطره العظيم أن يحدث تلك الفجوة بين الناس ، وبين كلام رب الناس عز وجل ،لأن هذه الفجوة كان من الممكن ألا تكون لو شعر الناس بالمفارقة بين الدنيا التى يعيشونها وبين يوم القيامة الذى هو آت لا محالة .

ومن ذلك قول الله عز وجل فى خاتمة لقمان : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ "

ومعنى ذلك أن الوالد لا يفتدى ولده ، ولا الولد يفتدى أباه ، كما كان فى الدنيا ، فإذا كان الوالد لا يجزى عن ولده شيئا من الآن ، ولا ولده يجزى عنه شيئا من الآن ، فكيف يستشعر هؤلاء هول يوم القيامة وهم يعيشون هذا الهول الآن ، فعلى الوالد أن يعود والدا بارا رحيما ، وعلى المولود أن يعود ابنا بارا ، حتى يتثنى لهما ولكل والد وولد أن يشعروا بهول يوم القيامة ، كما يشعرون بهول الزلزلة ، والنفخ فى الصور ، والحر الشديد ، والزحام والحشر ، والصراط

والحاقة والقارعة ، وغير ذلك مما هو آخذ بالقلوب ، ولن يأخذ مثله بالقلوب إلا إذا كان خطبا جللا ، لم يعهدوه فى حياتهم الدنيا التى عاشوها ، وخبروها ، وعرفوا سننها وطباعها ، فحين يقارنون بينها وبين الآخرة يجدون فروقا عظيمة ، منها أن الوالد لا يجزى عن ولده شيئا ، وقد كان من قبل يجزى ، وأن نفسا لن تجزى عن نفس شيئا ، وقد كانت تجزى .

وقد ثبت فى الصحيح أن النعيم فى الآخرة – وعدنا الله تعالى إياه – كذلك مختلف ، فالطلح منضود ، والسدر مخضود ، والرزق متشابه الشكل لكنه مختلف الطعوم ، "كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا"

وفى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد قال الله تعالى : "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾" ، وبهذا الذى جمعه ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : "ليس فى نعيم الدنيا من نعيم الآخرة إلا الأسماء" ، أى أن اسم الماء مثلا مشترك بين ماء الدنيا وماء الجنة ، لكن ماء الجنة مختلف ؛ إذ إنه كما قال الله تعالى " غير آسن " ، وكذلك اللبن غير اللبن ، وإن اتحدا فى الاسم ، فهو كما قال تعالى : "لبن لم يتغير طعمه " ، وكذا الخمر فى الدنيا مسكرة محبطة للعقل ، وهى فى الآخرة لذة للشاربين ، وعسل الآخرة كما قال تعالى "مصفى" قال الله تعالى فى آية محمد : "مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾"

وقد حاول بعض المعاصرين وهو (جمال البنا) أن يفسد هذا النعيم ، فقال على إحدى الشاشات فى حديث مسلم الصحيح الذى يقول فيه النبى صلى الله عليه

وسلم :"فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة" ، وضحك وقال : هذا حديث موضوع ، فسأله محاوره الطبيب خالد منتصر : وما سبب الوضع يا أستاذ جمال ؟ فقال : الخرافة ، يريد الوضاعون فى واقع الحال أن يحولوا الدين إلى خرافة ، فهل هناك شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ؟ هذا كلام فارغ .

يريد البنا أن تكون شجرة الجنة كالشجرة التى أمام بيته ظلها قصير ، وبلغة الفلاحين "مبرقع" إن كان أمام بيته شجرة .

صحيح كلام فارغ يا بنا إن كان أحد يقول : فى مصر ، أو فى أمريكا شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ، وإنما هذه شجرة فى الجنة ، وما فى الجنة مختلف عما فى الدنيا ، والذى قال ذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبتت صحة الحديث عند الدنيا جميعا إلا عندك

ولك أن تقول يا جمال فى القرآن ما قلته فى الحديث وقد قلته ضمنا ، إذ إن معنى قولك أن الماء كيف يكون غير آسن ، وأن اللبن كيف يكون لبنا لم يتغير طعمه ، ما دام قياسك هو قياس الحياة الدنيا .

إنه ذات الفكر ، فمن أراد أن يكون هول الآخرة محققا فى الدنيا والآخرة ، فلا يشعر به أحد مثله من أراد أن يكون نعيم الدنيا والآخرة سواء ، فلا يتطلع إليه إحد ، ولا يشتهيه أحد ، ألا ترى إلى أناس كثيرين دخلوا فنادق عظيمة ومطاعم مشهورة غالية ، وبعد أن تناولوا فيها ما قيل فيه (لذ وطاب) ، قالوا : وما الجديد ؟ وما اللذيذ ؟ إن أقل المطاعم فى الدنيا تصنع مثل هذا ، بل أحسن منه وألذ وأطيب ، بل إننا فى بيوتنا نصنع أفضل منه

.فهل يقال ذلك فى الجنة ؟ أن يكون ما فيها مثل نعيم الدنيا ؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

شيوع الدجل باسم الدين

من الدجل الذى ارتدى ثوب الدين ما يلى :

١ ـ "قل يا رب"

صحيح قل يا رب وأنت تعمل ، وتتعلم الحساب ، وتأخذ بالأسباب ، لكن لا يكفى أن تقول يارب وأنت نائم ، ولا وأنت مهمل للأسباب .

ونتج عن هذا الدجل أن قال غير الطبيب الذى يتعرض لعلاج المرضى لمن قال له : لكنك لست طبيبا : قل يا رب ، ولن يغنى قوله (يا رب) عن الطب شيئا ، وكذا يقول كل من يتعرض لعمل لا يحسنه : قل يا رب ، ويقبل عليه فى جرأة ، والله الذى هو ربنا يقول : **"هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ "**

ما قال : قولوا يا رب وأنا أرزقكم بمجرد قولكم ، وقد قال تعالى لمريم : **"وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا "**

وإذا كان الإمام مالك رضى الله عنه قد قال : أرى أن يقول كما قال الأنبياء : يا رب يا رب ، أو ربى ،أو ربنا ربنا ، أى الداعى ، فإن الدعاء فى الإسلام ملتبس بالعمل ، ولابد له من ركيزة يرتكز عليها ، مثل الرصيد ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : **"فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ "**

ومثل أن يمر الداعى بمناخ نعم الله تعالى عند غيره فلا يتمنى زوالها ، وإنما يسأل الله ما يشاء ، قال تعالى : " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ "

وقال جل فى علاه : "وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾"

ومثل أن يكون الداعى تقيا ، قال تعالى : "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ " ......وهكذا

والدعاء فى الإسلام ملتبس بالعمل ، قال تعالى : " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ " فلابد من العمل مع الدعاء ، وبيئة القرآن الكريم بيئة تفقه هذا الدين ، ومن فقه هذا الدين أن تقول " يا رب " ، ونحن أهل للعمل الذى نقبل عليه "فسئل به خبيرا" ، "فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"

٢- والله أدعو عليك

ومن الدجل الذى يرتدى ثوب الدين وهو دجل أن يخوفك أحد بالدعاء عليك إن لم تفعل ما يريد، والتهديد بالدعاء إنما يكون للظالم ؛لأن دعوة المظلوم لا ترد ، لكن أن تكون موظفا ملتزما بلوائح مؤسستك ، وتقدم ما فى وسعك لعميلك ، ثم يطلب منك هذا العميل أن تفعل له شيئا مخالفا ، ويهددك بالدعاء عليك إن لم تفعل ، فإذا بك تفعله لا سيما أن يقول لك أحد الجاهلين : ينتشك دعوة ، اعمل معروفا فى

نفسك ، إن دعوته (وحشة) ، صدقنى أنا عارفه ، فإذا بك تخاف وتقرل : تعالى يا عم ، سوف أفعل لك ما تشاء ، فأنت لا تفقه فى الدين ، ولست ولا الذى هددك ، ولا الذى خوفك من بيئة القرآن الكريم ، فبيئة القرآن الكريم لا يهدد أفرادها بعضهم بعضا بالدعاء

وقد سألنى ما لا يحصى من الشباب حول هذه المسألة ؛ فكثير من الأبناء بررة ، ولكن آباءهم وأمهاتهم يدعون عليهم ، برغم ما يقدمونه ، ويبذلونه من أجلهم ، ويخافون أن يصيبهم هذا الدعاء ، وأقول لهؤلاء : ما دمتم تتقون الله عز وجل ، وتبرون آباءكم وأمهاتكم فلا تخافوا الدعاء ؛ لأن الله عز وجل سميع بصير ، وقد رأى منكم حسن تعاملكم مع والديكم ، فلن يسمع دعاءهم عليكم

٣- **وكذلك وهم الإحسان** ، أن يخدعك أحد بأن يمدحك من أجل أن ينال منك ما ليس من حقه ، يقول لك : والله أنت رجل طيب ، ويبدو عليك الصلاح ، وأنا لا أشك أنك ولى من أولياء الله الصالحين ، فهذا من الدجل الذى يرتدى ثوب الدين ، وما هو من الدين ، والدليل على ذلك أن إخوة يوسف قالوا له : "**قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾**" فماذا قال يوسف عليه السلام ؟

قال : " **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾**" ،وقال الله عز وجل بعد ذلك : "**فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾**"

وصلوا إلى درجة اليأس وأيقنوا أنه لا فائدة منه ، ولن يغره هذا الثناء ؛ لأنه رجل لا يحب أن يكون من الظالمين ،،

وقد ظلم كثير من الناس بعضهم بعضا بهذا السلوك ، ومنه وهم الحب ، ألا ترى إلى ذلك الذئب الذى أوهم الفتاة المتوسطة الجمال أو الدميمة بأنها ملكة جمال الكون ، وأنه يحبها حبا ما أحبه قيس وكثير ، حتى افترسها ، ثم قال لها بصريح العبارة حين ناشدته بالله أن يتزوجها ، وأن يعالج خطيئته ، فقال لها : لست أول من لمسك ، ثم من أنت حتى أرضى بك زوجة ، إلى آخر تلك المآسى .

وألا ترى إلى ذلك المسكين الذى غره الثناء وخدعه حتى باع ذهب زوجته التى كانت تدخره للزمن وأعطاه من أثنى عليه .

ولو كان الذئب على هدى من ربه ، وذلك المخادع كذلك ، لذهب الأول وأتى البيت من بابه ، وسأل أهل الفتاة زواجا شرعيا ، ولو اتقى الله الثانى ما خدع المسكين حتى باع له مال زوجته ، وعدتها ، وما أكثر النماذج السيئة التى يكون فيها الخداع الوارد فيه قول الله عز وجل : **"وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾"**

٤ـ ما لا يصلح جوابا مفيدا فى الشرع

ومن المفاسد التى سببها إلباس فاسد المعانى ثوب الدين ما يمكن أن نطلق عليه "ما لا يصلح أن يكون جوابا مفيدا فى الشرع" ، مع أنه من معجم الشرع ، ومن ذلك :

- أن يقول لك : الله أعلم ، إن سألته عن شيء ، والصواب أن يقول لك : أدرى ، أو لا أدرى ، سأل عمر رضى الله عنه شابا عن طريق ؛ فقال : الله أعلم ، فعلاه بالدرة ، أى ضربه ، ثم قال : قد شقينا إن لم نعلم أن الله أعلم ، إذا سئل أحدكم عن شيء فليقل أدرى أو لا أدرى

- أن يقول لك : إن شاء الله ، إن قلت له : إننى راغب فى زيارتك ، أو أود أن تصحبنى فى مصلحة كذا ، ومعنى ذلك أنه لن يزورك ، ولن يصحبك ، وقد قال الله عز وجل : "وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ" ومعنى ذلك شرعا أن الذى يقول "إن شاء الله" سوف يفعل .

- أن يقول لك : وحد الله ، وصل على النبى ، ويعنى بها : اسكت ، ومعنى وحد الله أن تقول لا إله إلا الله ، وصل على النبى أن تقول : اللهم صل على محمد وآل محمد .

٥- ومن ذلك الالتزام الشكلى

كم من الناس يخدع بعضهم بعضا بالشكل ، من لحية وثوب قصير ، وسواك فى جيبه أو فى يده ، أو مصحف أو تسجيل "سبحان الذى سخر لنا هذا" فى المصاعد والسيارات ، وكتابة لفظ التوحيد ، والصلاة والسلام على سيدنا النبى الحبيب ، والمرأة بالخمار أو النقاب ، تقول : أنا من يوم التزمت وتحجبت ، وكذا ، وأنا أسمع الأناشيد الدينية ، وأحضر الدروس الدينية ، وكذا .... وكذا .

وهذا الالتزام بالشكل طيب ، إن صحبه التزام بالعمل ، ألا ترى إلى الحديث الشريف : "إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" ، ومعنى أنه تعالى لا ينظر إلى الصور أن الصور فقط غير معتبرة ، هذا من

معطيات النظر ، وإلا فالله عز وجل لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، كما تقول : أنا لا أنظر إلى المال ، مع أنك تراه أمام من يقدمه لك ، أى أنك تريد أن تقول : أنا لم آتك من أجله ، وإنما أتيت لشيء آخر يتصل بالمعانى ، ومنها المودة مثلا ، والاتصال ، وغير ذلك كثير .

وكم خدعت الصور أناسا ظنوها عناوين صدق على وفاء أهلها ، وصدقهم وأمانتهم ، فلما تعاملوا معهم وجدوا المفارقة شاسعة بين الشكل والمضمون

٦- ربنا يضع سره فى أضعف خلقه

ومن العبارات الدالة على الدجل الذى يرتدى ثوب الدين قول من يصرف الناس عن المعلم والطبيب والمهندس " ربنا يضع سره فى أضعف خلقه " ، يسجده بتلك العبارة حتى يطمئن إلى الضعيف فى كل شيء ، والإسلام براء من هذا الفكر الذى أدى إلى تخلف الأمة أفرادا وجماعات ، وذلك لأن الإسلام دعوة إلى القوة ، قال تعالى : "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ" ، وقال سبحانه : "**يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ**" ، وقال عز من قائل : "**عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ**" ، وقال تبارك اسمه :"**فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ**" .

وفى الحديث الشريف : "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" ، والدين الذى هو يسر كله دين قوى ، الا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق" ، وقد قال تعالى محذرا المؤمنين من تفوق غيرهم عليهم : "كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً" ، وقال تبارك اسمه : "**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾**"

٧- توكل على الله ، ولا تستشر أحدا!

فى حديث مشهور " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان" ؛ ذكر المناوى فى فيض القدير أنه ضعيف ومن الأئمة من وصفه بالوضع ، وقد قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : "وشاورهم فى الأمر" ، وقال عز من قائل فى عباده المؤمنين : "وأمرهم شورى بينهم"

لكن شيوع مثل هذا الدجل تحت شعار "توكل على الله " تهدد هذا المعنى الذى هو الشورى ، وتضربه فى مقتل ، فإن الله عز وجل يقول : "**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾**"

ومقتضى التدبر للآية أن التوكل على الله تعالى يكون بعد الشورى ، وبعد دراسة الآراء ويأتى العزم ، ثم يكون التوكل أى يكون الإنجاز؛ فالتوكل على الله عز وجل يعنى الإنجاز ، ولن يكون إنجاز بدون شورى ، وبدون عزم ، إنما يكون الإنجاز كما قال الله عز وجل : "**وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**" فكيف تخدع الناس باسم الدين أن ينجزوا وفق ما بدا لهم دون الإفادة من ثمرات عقول غيرهم !

المحتـــوى